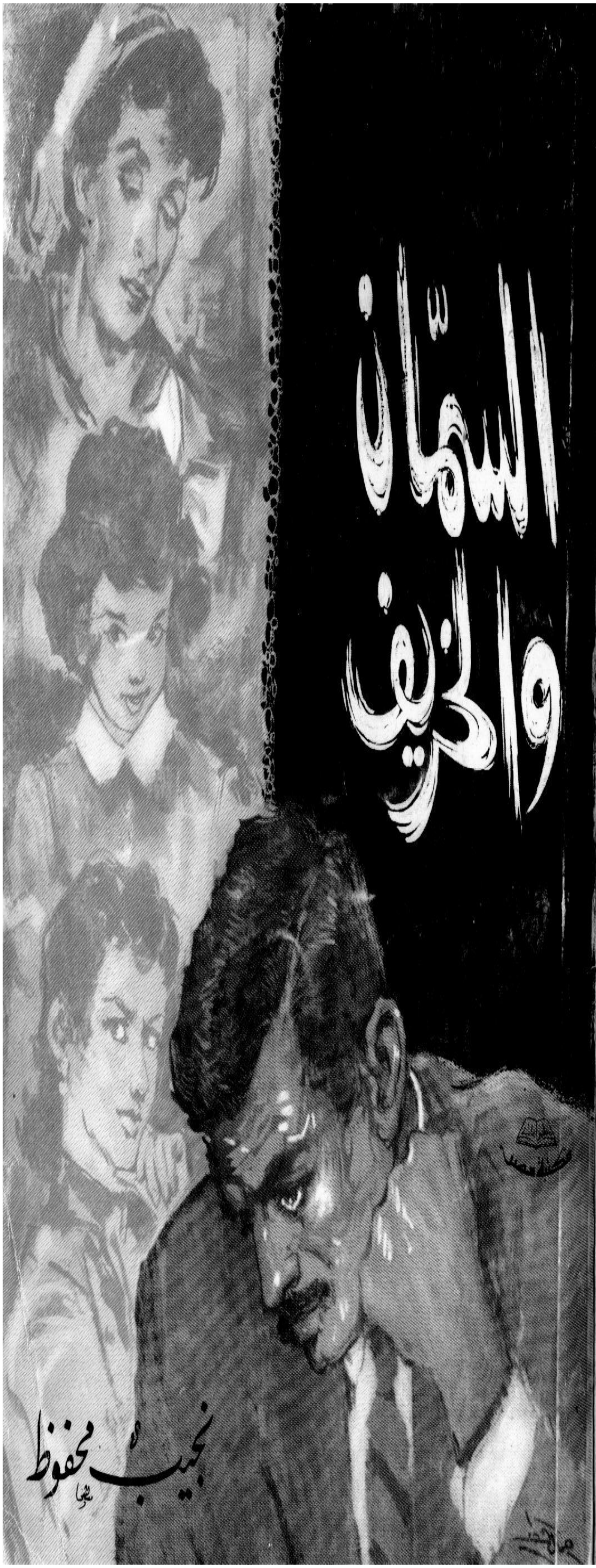


نجيب محفوظ

السمان والخريف

(مكتبة مصر)

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٢٢٥ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

١

وقف القطار ولكنه لم يجد أحدا فى انتظاره . أين السكرتير ؟، أين موظفو المكتب ؟ أين السعاة ؟. وأجال بصره فى المكان والناس بلا جدوى . ماذا جرى !. هل دار رأس القاهرة تحت ضربة القنال الآثمة ؟!. وغادر موقفه عند مقدمة العربة فسار حاملا حقيبته الصغيرة نحو الخارج وهو يقطب استياء ، ثم ساوره قلق . وتفحص الوجوه بدافع غريزى فوجدها تعكس انقباضا مخيفا ، وتحركت فى أعماقه غريزة تتنبأ بالمخاوف . أهى مذبحة الأمس بالقنال أم أحزان جديدة تزحف ؟. هل يسأل الناس عما وراءهم ؟! ولم ينتظره أحد . ولا واحد من مكتبه شذ عن هذا السلوك العجيب !. يا لها من أيام غريبة حقا . ولم تزل ذكريات القنال ناشبة فى رأسه بكل حدة . المشاهد الدامية . مذبحة رجال البوليس ، البطولة العزلاء . ولم يزل صوت الشباب الفدائى يخرق أذنه وهو يصيح غاضبا :

ــ أين أنتم .. أين الحكومة !.. ألستم أنتم الذين أعلنتم الجهاد ؟!

فقال فى حرج شديد :

ــ بلى ، ولهذا تجدنى أمامك فى هذا الخلاء ..

فصرخ فى غضب أشد :

ــ نريد سلاحا ، لم تقترون علينا !

ــ اليد قصيرة ، وموقف الحكومة دقيق ..

ــ وموقفنا نحن !.. وموقف الأهالى الذين خربت بيوتهم ؟!

ــ أعلم ذلك ، كلنا نعلم ذلك ، صبرا ، وسنبذل أقصى ما نستطيع ..

ــ أم تقنعون بالفرجة ؟!

يا لها من غضبة كالنار . ولكن ماذا فى القاهرة ؟..

لا عربة واحدة لتنقله . وفى ميدان المحطة جماهير تجرى فى كل اتجاه . الغضب يشتعل فى الوجوه واللعنات تنصب على الإنجليز . الجو بارد والسماء متوارية خلف سحاب متجهم والهواء ساكن لا حياة فيه . الدكاكين مغلقة كالحداد وعند الآفاق تصاعد دخان كثيف ..

ماذا فى القاهرة ؟!

وتقدم فى حذر ، وأشار إلى رجل يقترب ثم سأله :

ــ ماذا فى البلد ؟

فأجابه فى ذهول :

ــ القيامة قامت ..

فسأله فى إلحاح :

ــ تعنى مظاهرات احتجاج ؟!

فهتف وهو يأخذ فى الجرى :

ــ أعنى النار والخراب ..

وواصل تقدمه الحذر البطىء وهو يتفحص ما حوله . وتساءل فى دهش : « أين البوليس ؟. أين الجيش ؟ » . وفى شارع إبراهيم تجلت حقيقة اليوم بصورة أبشع . خلا الميدان للغاضبين . انفجر مكنون اللاوعى كالبركان . صراخ جنونى كالعواء . انقضاض على أى قائم على الجانبين . بترول يراق . حرائق تشتعل . أبواب تحطم . بضائع تنتثر . تيارات تندفع كالأمواج المتلاطمة . الجنون نفسه بلا رقيب . ها هى القاهرة تثور ولكنها تثور على نفسها . إنها تصب على ذاتها ما تود أن تصبه على عدوها . إنها تنتحر . وتساءل فى فزع ماذا وراء ذلك كله ؟! واستفحل نشاط غريزته التى تتنبأ بالمخاوف . وأيقن أن مأساة حقيقية سيرفع عنها ستار الغد . ثمة خطر يتهدد صميم حياتنا . يتهددنا نحن لا الإنجليز . يتهدد القاهرة والمعركة القائمة فى القنال والحكومة ويتهدده هو

باعتباره جزءا من هذه الحكومة . هذا الطوفان سيقتلع الحكومة والحزب وشخصه فى النهاية . هيهات أن يعتصر هذا الخوف من قلبه . هيهات أن يتناساه رغم دوامة الجنون المحدقة به . كأنها أقوى من الجنون والخراب والنار . وإنه ليؤمن بغريزته بهذا إيمانا قاتلا . هى نذيره فى أوقات الأزمات السياسية وقبيل الإقالات المتعددة التى أطاحت بحزبه عن كراسى الحكم المرة تلو المرة . لعلها النهاية . وستكون نهاية مميتة لم تسبق بمثيل لها من قبل .

ومضى يقترب من قلب المدينة فى ذهول تام . صمم على أن يطلع على كل شىء . إنه مسئول ، ومهما يكن من ثانوية مركزه نسبيا فهو مسئول ويجب أن يرى كل شىء بعينه ، الضوضاء فوق كل احتمال كأن كل ذرة فى الأرض تصرخ . اللهيب ينطلق من كل موقع . إنه يرقص فى النوافذ ، يقعقع فى الأسقف ، يصفر فى الجدران ، يطير فى الجو والدخان يتربع مكان السماء . رائحة الحريق تقتحم الأنوف كعصارة جهنمية من الخشب والأقمشة وزيوت شتى . هتافات غامضة كأنما تنبثق من الدخان ، غلمان يخربون كل شىء فى نشوة وبلا مبالاة . جدران تنهار مفجرة رعدا . الغضب المكتوم ، اليأس المضغوط ، الضيق المتكتل ، كل أولئك حطم القمقم وانطلق كزوبعة من الشياطين . وقال لنفسه إن أشياء كثيرة يجب أن تحرق ولكن ليست القاهرة . أنتم لا تدرون ماذا تفعلون . إن فرقة كاملة من الإنجليز لتعجز عن إحداث عُشر هذا الخراب ، انتهت معركة القنال . خسرنا المعركة . قلبى المجرب بالمحن لا يكذب . الحكومة بلا جنود والنار تجرى بلا عقبة . هل تلتهم النيران المدينة الكبرى ؟. هل يمسى ثلاثة ملايين من البشر بلا مأوى ؟. هل ينعق الخراب والمرض والفوضى ويرجع الجيش البريطانى ليعيد الأمن إلى نصابه ؟. هل ينسى الناس فى محنة الخراب الاستقلال والوطنية والآمال العريضة !. إن القلق يدب فى جذور قلبه كالنمل وتسود الدنيا فى عينيه اللتين زايلهما الطموح والمجد . وعند الأركان فى الشوارع الرئيسية لبد رجال يحرضون :

— احرق .. خرب .. يحيا الوطن ..

تفحصهم باهتمام وحنق . ود لو يستطيع أن يقنعهم . ولم يمكنه التيار المتضارب من الوقوف قبالتهم لحظة . إنهم وجوه غريبة لا هى من حزبه ولا من الأحزاب الأخر . إنها وجوه غريبة تفوح منها رائحة الغدر ، وخيل إليه أن فى الجو رائحة عفنة أشد كآبة من الدخان . وزفر مع اليأس والذهول غضبا :

— احرق .. خرب .. يحيا الوطن ...

يا للأوغاد ! . هل تذهب دماء القنال هدرا ؟ وأرواح جنود البوليس وضباطهم ؟. إن كل ما هو قيم وجميل يبدو أنه سيصير هباء . كيف السبيل إلى الوزارة ليقابل المسئولين ؟. ليس فى الطرقات إلا حطام سيارات ، ليس فى الجو إلا حمرة قانية تحتدم تحت سواد . ماذا يقول للفدائى الغاضب لقلة السلاح إذا اطلع على هذا المشهد الغادر الدامى ؟. ما عسى أن يقول لو سمع نداء المؤامرة ؟

— احرق .. خرب .. يحيا الوطن ..

النار والخراب والدخان شعارات اليوم الفظيعة ولكن الخيانة اللابدة فى الأركان أفظع . وتلاطمته أمواج الثائرين الجنونية فازدرد ريقه مرات بمعطفه الرصاصى الطويل ولفظته وقد اختل توازنه واصطكت بساقيه حقيبته وهو يشد على مقبضها بقوة مستميتة . وتلاشت من رأسه نقاط التقرير الذى كان عليه أن يرفعه إلى الوزير عن سير المعركة ومطالب الفدائيين . وفكر فى المستقبل على ضوء العاصمة المحترقة فلاح لعينيه كالدخان . وتذكر وهو يميل إلى منعطف أقل وحشية حديث عضو الشيوخ المعمم الذى قال معلقا على إلغاء المعاهدة :

— انتهينا والأمر لله !

وغضب وقتذاك وهو يجلس لصقه بالنادى وصاح :

— هكذا أنتم أيها الشيوخ لا يهمكم إلا مصالحكم ..

فقال له بتوكيد وبلهجة لم تخل من سخرية :

— هذه هى النهاية والأمر لله !

فارتفع صوته فى حماس :

— ليس فى كل ماضينا المجيد موقف كهذا !!

فعبث الشيخ بشاربه ، وقال بحزن :

— بلى ، كأيام سعد ، ولكنها النهاية !

شيخ مجرب طوى عهد الحماس ولكن ها هى القاهرة تحترق ، وهؤلاء الغادرون فى الأركان ما أكثرهم . واليد قصيرة إذا اقترنت ببصيرة فليسكر صاحبها بنقيع الأحزان حتى يغرق . وفى الفضاء المكتظ بشظايا الخراب تجسد الحزن كأنه وحش قتيل . ونال منه الإعياء فقرر أن يشق الطريق إلى مسكنه . وخيل إليه أن دهرا طويلا سيمضى كالسلحفاة قبل أن يلمح مشارف الدق .

٢

عند جنوم الليل ذهب إلى سراى شكرى باشا عبد الحليم على مسيرة ربع ساعة من مسكنه بحى الدق . واستقبله الباشا فى حجرة مكتبه فجلسا على مقعدين متقاربين . وبدا الباشا فى المقعد الكبير شبه ضائع بجسمه النحيل القصير ولكن وجهه الصغير المستدير الناعم عكس اكفهرارا مغلفا بهدوء الشيخوخة . وأعلنت بدلته الرمادية الإنجليزية عن أناقة عريقة واستقام طربوشه الأحمر الفاتح على رأس لم يبق فوق سطحه شعرة واحدة . تبودلت كلمات الترحيب فى عجلة دلت على خطورة الموقف . وشعر عيسى بحرج أول الأمر لما علمه من تطلع الباشا إلى الوزارة ولما تردد من شهر أو أكثر عن ترشيحه لها فى أول تعديل وزارى . وأفدح الخسائر ما أصاب الجانبين الشخصى والعام فى وقت واحد . ترى كيف يفكر هذا الشيخ الذى انتظر الوزارة طويلا ؟. هذا الشيخ الذى هبط نشاطه فى مكتبه إلى الحد الأدنى ، والذى لم يعد له من عمل حقيقى سوى نشاطه باللجنة المالية بمجلس الشيوخ . رثى له كما يرثى لنفسه ، ورنا إليه بنظرة مترددة كنوع من العزاء وهو يجلس على المقعد بقامته الرشيقة وقد استرد وجهه ــ بعد الراحة فى بيته ــ رونق الشباب رغم جريان الهم فى تقاسيمه . وقال الباشا وهو يدير خاتم الزواج حول بنصره :

ــ سنؤرخ بهذا اليوم طويلا ..

فقال عيسى متشوقا لمعرفة أى جديد :

ــ شهدت جانبا منه ، يا له من يوم أسود !..

وأحنى رأسه الكبير المستطيل حتى ترامت صفحة شعره المجعد أمام عينى الباشا ثم رفعه مقطبا ليتطلع إليه بوجهه المثلث الذى ينبسط عند الجبين ويضيق

رويدا حتى يرتكز على ذقن مدبب . وتساءل الباشا :

ــ إذن جئت والقاهرة تحترق ؟

ــ نعم كانت الجحيم نفسه يا باشا ..

ــ يا خسارة !.. وكيف وجدت الحال هناك ؟

ــ الشبان فى غاية من الحماس ولكنهم فى حاجة ماسة إلى السلاح ، أما مذبحة البوليس فقد هزت القلوب هزا .

ــ معركة ظالمة مشئومة ..

فقال عيسى بضيق :

ــ نعم ، إننا ندفع دفعا نحو ..

وتلاشت الكلمة الأخيرة بين شفتيه فى إشفاق فتلاقت أعينهما فى كآبة ، وسأله الباشا :

ــ ماذا يقول الناس عنا ؟

ــ الروح الوطنية عالية جدا ، أما أعداؤنا فيقولون إننا افتعلنا معركة لنشغل الناس بها عنا .

فانحرف جانبُ فيه فى احتقار قائلا :

ــ سيجدون دائما ما يقولونه ، أوغاد .. أوغاد ..

وبينهما قام خوان ، وفوق الخوان إبريق مفضض وطبق بسكوت فطلب الباشا إلى عيسى ــ دون كلفة ــ أن يملأ قدحين ، وراحا يحتسيان بلا لذة ، وفى أثناء ذلك امتد بصر عيسى إلى صورة سعد زغلول المعلقة فى الجدار فوق المكتب الفخم إلى يمين مجلسهما . وقال عيسى :

ــ تصور سعادتك أننى لم أستطع الاتصال بوزيرى حتى الآن ..

فربت الباشا على شاربه الفضى برقة وقال :

ــ قل فى هذا اليوم ما شئت ، أين الوزير ؟.. لا أحد يدرى ، أين البوليس ؟.. لا أحد يدرى ، أين الجيش ؟.. لا أحد يدرى ؟ اختفى الأمن



.. قل فى هذا اليـوم ما شئت .. أيـن الوزير .. أين الجيش .. لا أحد يدرى

وزحف الشيطان ..

ــ ترى هل ما زالت النار مشتعلة ؟!

مد الباشا ساقيه حتى طوقتا أرجل الخوان الأبنوسية فاشتد لمعان حذائه الأسود تحت سمت النجفة البللورية الرباعية الأذرع وحانت من عيسى التفاتة إلى المدفأة المركبة فى الجدار فأعجب بشفافية لهيبها الأحمر المتراقص وتذكر المجوس . ثم سرعان ما استلمح الدفء الذى يهبه بجود ، وجرت عيناه برشاقة على الأثاث الكلاسيكى المجلل بالوقار والفخامة وأحزان الوداع فتذكر مرثية أنطونيو فوق جثة قيصر . أما شكرى باشا عبد الحليم فأجابه فى كسل متعمد :

ــ آن للنار أن تنطفىء بعد أن أدت الخدمة المطلوبة !.

فالتمعت عينا الشاب العسليتان المستديرتان ، ثم قال مستدرجا محدثه إلى المزيد :

ــ لعله الغضب الأهوج ..

ابتسم الباشا عن طاقم نضيد وقال :

ــ كان غضب ، وكان وراء الغضب حقد ، أما الغضب فأهوج حقا ، وأما الحقد فذو خطة مرسومة .

ــ وكيف يقع هذا ونحن فى الحكم ؟.

ضحك الباشا ضحكة جافة مختزلة وقال :

ــ هذا اليوم كالليل المتراكم السحب ، انتظر حتى نعرف أين الرأس وأين القدم .

تطاول عيسى فى توتر ثم زفر حتى أرعش أهداب غطاء الخوان المخملى ، ثم تمتم متسائلا :

ــ الأحزاب ؟؟

فانحرف إلى أسفل جانبا الفم الدقيق فى ازدراء وقال :

ــ هى أضعف من أن تدبر أمرا !

ــ من إذن ؟

تساءل وريبة ذات معنى تتجلى فى عينيه . فقال الباشا :

ــ الأمر ليس بالوضوح الذى تظنه ، قد تتسلل من السراى تعليمات معينة ، قد يمرح جواسيس الإنجليز ويعيثون فسادا ، ولكن يخيل إلى أن المد بدأ طبيعيا جدا ثم انتهز النهازون الفرص ..

وبغتة ثارت المخاوف الراسبة فى أعماقه فزلزلت قلبه فتساءل :

ــ وماذا عن مصير المعركة ؟

عاد الباشا إلى العبث بشاربه الفضى ، ورفع عينيه إلى السقف التى تضىء أركانه الأربعة أنوار متوارية وراء أجنحة مذهبة ثم أعادها إلى وجه الشاب وهما تعكسان غموضا وكآبة دون أن ينبس ، فقال عيسى مطاردا القلق الذى يعذبه :

ــ الويل لمن تسول له نفسه العبث بجهادنا !

فلم يبد الحماس فى وجه الباشا ولا التفاؤل واكتفى بأن قال :

ــ هذا يوم خطير له ما بعده ..

فقال عيسى بصوت فاتر منهزم :

ــ للمرة الثانية فى هذا اليوم أتذكر قول الشيخ عبد التواب السلهوبى اثر المعاهدة : « انتهينا والأمر لله » ..

فابتسم الباشا قائلا :

ــ إننا لا ننتهى أبدا ، فقد نسقط ولكننا نعود أقوى مما كنا ..

ورن التليفون . وكان المتحدث حرم الباشا من الدور الأعلى . وتجلى الاهتمام فى وجه الباشا إلى أقصى حد . وأعاد السماعة وهو يقول :

ــ أعلنت الأحكام العرفية ..

ومضت فترة ذهول حتى قطعها عيسى مغمغما :

ــ لعلها ضرورة للقبض على المجرمين ..

لكنه رأى الباشا غارقا فى التفكير الحزين فاستدرك متأسفا :

ــ أحكام عرفية فى عهدنا !.. يا له من حدث مؤسف !

فقال الباشا :

ــ وهى لم تعلن من أجل عهدنا !

٣

قال عيسى :

ــ صدر قرار بنقلى من وظيفة مدير مكتب الوزير إلى المحفوظات !

رفعت إليه أمه وجها نحيلا يشبه وجهه لدرجة كبيرة وبخاصة فى هيئته المثلثة ولكنه كثير الغضون ، وللشيخوخة فى عينيه وفمه ولحييه معاقل ، ثم قالت :

ــ ليست المرة الأولى ، لا تحزن ، ستعود إلى ما كنت وأحسن ، وربنا يصلح الحال .

كانا يقعدان فى حجرة الجلوس ذات الشرفة المطلة على شارع حليم بالدق . وكان زجاج الشرفة العريض مغلقا دفعا للبرد وأغصان صفصافة تصعد وتهبط خلفه فى حركة وانية وامتدت وراء ذلك السحب وتكاثفت وتجهمت كالسياسة . وكانت الوزارة قد أقيلت فأقصته الوزارة الجديدة فيمن أقصت من موظفين عن الوظائف الرئيسية وبخاصة من كانت لهم علاقة بمعركة القنال وتعد هذه الأحداث عادية أو شبه عادية عند الأم لكثرة حدوثها . وهى لا تصدمها صدمة اليأس لأنها ألفت أن يعقب المد جزر فى صالح ابنها المحبوب . ورغم شيخوختها وأميتها فهى تتابع الحياة السياسية وتدرك من أمورها ما يسمح به موقف عيسى وما يؤثر فى حياته جذبا ودفعا . هى به فخور وتؤمن بكل كلمة يقولها . وتعجب بما حقق من نجاح فاق الخيال ، خيالها وخيال المرحوم والده الذى عاش ومات موظفا صغيرا مغمورا . عيسى يشق طريقه رغم شلالات السياسة وزوابعها يغطس أحيانا حتى يظن به الغرق ولكنه يقب محرزا درجة جديدة من التفوق . وهذا المسكن الجميل بالدق آية على نجاحه وصموده ، وأثاثه متعة تبهر البصر ، وفى مناسبات غير نادرة يشرفه بالزيارة باشوات ووزراء

وتتساءل المرأة وأصابعها المتحجرة تقدس الله على حبات المسبحة الحجازية . أما لهذه الحال من نهاية تستقر فيها على خير ؟!. وهل هى وليدة ظروف معقدة عسيرة على الفهم أو هى إصابات نافذة لأعين شريرة ؟!.

وقال عيسى فى فتور :

ــ من العجيب أننا لا نكاد نستقر فى الحكم عاما حتى يقذف بنا خارجه أربعا ، ونحن نحن الحكام الشرعيون ولا حكام شرعيين غيرنا فى البلد ..

فقالت بإيمان وإصرار :

ــ المهم الصحة والعافية .

فابتسم ابتسامة ساخرة مريرة ولكنه لم يشأ أن يعلن عن مرارته . وعلى العكس من ذلك قال بلهجة ذات دلالة :

ــ المهم أن أنتهز فرصة العزلة لأعنى بشئونى الخاصة .

فاختلجت عيناها الكليلتان فى اهتمام وقالت بارتياح صاف لأول مرة :

ــ نعم . تعجبنى . آن لك أن تتزوج ، فتاتك فى الانتظار ، وأبوها العظيم لم يضن بموافقته .

فضحك متسائلا :

ــ ألم يكن الأجمل أن أتزوج وأنا متمتع بالجاه والسلطان ؟!

فابتسمت عن طاقم لاح بريقه كياسمينة منسية فى حديقة اقتلعت أشجارها وقالت :

ــ مركزك كبير ، وهم يعلمون انك مرشح لأعلى المناصب ، وعلى بك سليمان يفهم الأمور جيدا ، ثم إنه قريبك . وكان يحب المرحوم والدك أكثر من أى شىء فى العالم .

هذا كله حق . على بك سليمان ابن خال والده . وأسرته تمثل الغصن المورق فى شجرة أسرته الجرداء ، غنى من سلالة غنية . ومستشار خطير فضلا عن أنه من رجال السراى . وعندما يدعم نفسه بمصاهرته سيجد فى مرفئه استقرارا إذا

عبثت عواصف السياسة بقاربه . الخسائر التى تجيئه من الحزب أطول عمرا من مكاسبه . وسلوى فتاة ممتازة حقا ، لا وجه للمقارنة بينها وبين ابنة عمه التى سعت أسرتها طويلا لتزويجها منه . وأم سلوى امرأة ممتازة أيضا وهى ميالة للمحافظة على ندرة ذلك فى طبقتها . ومن حسن حظه أنها حسنة الظن جدا بمستقبله حتى تخيلته وزيرا أقرب مما يتصور . وعندما فاتحها فى مطلب زواجه من كريمتها صارحته قائلة إنها لا يهمها المال ولكن يهمها المركز ، أو ليست الدرجة الثانية امتيازا حقيقيا لشاب فى الثلاثين من عمره ؟. وهى لها تقدير خاص للشبان المتعلمين فى الخارج ، وهو وإن لم يتعلم فى الخارج إلا أنه خدم عاما فى سفارة لندن . وسافر ملحقا بسكرتارية وفد المفاوضات . وطاب له أن يستحضر صورة سلوى بجمالها البلقانى المغرى كالكريم شانتى ، واعتدها منه من الله أنها ليست من فتيات النوادى ولا من معتنقات فلسفة العصر . وقال لوالدته :

ــ تصورى أننى لم أكن رأيتها منذ الصغر !

ــ هذا تقصير منك . انهماكك فى العمل ليس بالعذر الكافى . فمن كان له قريب كعلى بك سليمان وجب عليه أن يوثق علاقته به ..

ــ كنت ألقاه فى الخارج . لم أكن أفكر فى الزواج ..

وهو قد طلب يدها من والدها وليس له عن صورتها إلا فكرة غامضة غاية الغموض ، ولكنه وجدها آية وسرعان ما أحبها من كل قلبه . وتهيأ لاختيار الألفاظ المناسبة للإفصاح عن عواطفه الجديدة أمام أمه . ولكن دخلت أم شلبى لتعلن عن حضور حسن ابن عمه لزيارته . وتجاذبت قلبه عواطف متناقضة ولكن غلب عليه النفور الخليق بمن يكابد حسرات الهزيمة .

وقدم حسن على الدباغ منطلق الأسارير . ربعة متين البنيان . مربع الرأس عميق الملامح ، عريض الذقن ، ويمتاز بعينين صافيتين ذكيتين وأنف حاد مدبب . قبل يد امرأة عمه وصافح عيسى بحرارة لم تخفف من نفوره ثم جلس إلى جانبه وهو يطلب الشاى . هو على وجه التقريب يماثل عيسى عمرا ، غير أنه فى

الدرجة الخامسة على حين دفعت السياسة عيسى إلى الدرجة الثانية ، ومع أنه من حملة بكالوريوس التجارة إلا أنه لم يجد عملا إلا فى القرعة العسكرية . وسألته أم عيسى :

ــ كيف حالكم ؟

ــ بخير ، أمى بخير وأختى بخير ..

ازداد عيسى نفورا عند ذكر الأخت لا لشىء كريه فيها ولكن لكونها أخت هذا الغريم والمنافس القديم . كانا متنافسين ومتلازمين وتبادلا عواطف حادة مؤلمة . السياسة وحدها التى حسمت ما بينهما من أسباب التنازع فرفعت عيسى إلى مركزه المرموق على حين تدرج حسن ببطء فى طريقه الوعر . وفترت العلاقات بعض الشىء ورسبت العواطف فى الأعماق ولكن حسن لم ينقطع عن ابن عمه أبدا بل تمنى لو يزوجه من أخته . ومن عجب أن حسن فكر جادا فى الذهاب إلى قريبه على بك سليمان ليطلب منه يد ابنته عقب عيسى بأيام . وضحك عيسى ازدراء عندما نمى إليه الخبر وقال لنفسه « رحم الله امرأ عرف قدر نفسه » ولكنه كان يضمر له إعجابا رغم نفوره منه لقوة شخصيته ووفرة ذكائه . وقال حسن بأريحية :

ــ سمعت عن نقلك إلى المحفوظات ، لا تحزن ، أنت رجل مخلوق للشدائد .

فدخلت الأم فى الحديث قائلة بحماس :

ــ لا داعى للحزن ، هذا ما أقوله دائما ، وهؤلاء الناس لماذا يتركون الكبار وينتقمون من الأبناء !!

وتعقد عيسى بمواساة حسن فقال باعتزاز :

ــ نحن قوم اعتدنا السجن والضرب فما أهون عقاب اليوم .

ومضى حسن يرشف الشاى فى سعادة وهو يبتسم ويقول بلهجة تنذر بالهجوم :

ــ أنتم تسجنون وتضربون حقا ولكن الآخرين يتاجرون ..

وأدرك عيسى من يعنيهم بقوله « الآخرين » فتحفز لمعركة . وغادرت الأم الحجرة لتصلى المغرب ، وقال عيسى منذرا :

ــ أنت تعلم بمنزلة الآخرين فى نفسى فحذار !

فقال حسن بتحد باسم :

ــ إن كل شيء ينهار بسرعة ، ومن الخير أن ندعه ينهار ، هذا القديم كله يجب أن يجتث من جذوره !

فتساءل عيسى فى حدة :

ــ وقضيتنا الوطنية من يبقى لها ؟

ــ أتظن أن هؤلاء الشيوخ المخرفين الفاسدين هم الذين سيحلونها ؟

ــ أنت لا تستطيع أن تراهم على حقيقتهم ..

ــ الحقيقة أننى أراهم على حقيقتهم ..

ــ أنت تردد باستمرار أقوال الصحف المعادية !

فقال بثقة مثيرة للحنق :

ــ أنا لا أومن إلا بالواقع ، وعلى الشباب أن يعتمد على نفسه !

فدارى عيسى حنقه قائلا :

ــ دعوة هدم خطيرة ، لولا الخونة لأوقفنا الملك عند حدوده الدستورية ولحققنا الاستقلال ..

أتى حسن على القدح وابتسم بغية تلطيف الجو ثم قال برقة :

ــ أنت رجل مخلص وإخلاصك يحملك على الولاء لأناس لا يستحقون الولاء . صدقنى لقد عم الفساد ، لا هم لأحد من أصحاب السلطات اليوم إلا الإثراء المحرم ، إننا نستنشق الفساد مع الهواء ، فكيف تأمل أن يخرج من المستنقع أمل حقيقى لنا ؟!

وترامى إليهما صوت الأم وهى تكبر ، وخفف عيسى من حدته مراعاة للضيافة . ولم تكن قوة تستطيع أن تحمله على التسليم بما يقول غريمه ولو معاندة له

ولكن اجتاحه حزن عميق . الدنيا تتغير وآلهته يتفتتون بين يديه . وحسن من جانبه غير الحديث فتكلم عن خسائر الحريق وتقدير التعويضات وموقف الإنجليز والاعتقالات المستمرة ، ولكن ما لبث أن عاد يقول :

ــ دلنى على ركن واحد لم ينضح بالفساد ؟

ما أبغض أفكاره . محنق حاد مثير للكدر . وحادثة قديمة برزت فى وعيه بلا مناسبة . وكان بصحبة أبيه فى زيارة لبيت على بك سليمان فوجد نفسه وحيدا فى حجرة السفر ، ولمح قطعة شيكولاتة فى درج نصف مفتوح فدس يده فسرقها . حدث ذلك منذ حوالى ربع قرن فيا للذكرى . أما حسن فلا يكف عن الهجوم كعادته دائما فتبا له . وسأله بفتور :

ــ ماذا تريدون ؟

ــ دما جديدا طاهر .

ــ من أين ؟

فضحك عن أسنان لؤلؤية صارخة بالصحة والعافية وقال :

ــ البلد لم يمت بعد ..

فتساءل عيسى بحدة :

ــ دلنى على ركن يستحق الثقة غير حزبنا ؟!

رماه بنظرة ساخرة دون أن ينبس . وعلا صوت العجوز فى الخارج بسيل من الأدعية ، فعاد عيسى يتساءل :

ــ ما العمل إذن ؟

ــ نؤيد الشيطان إذا تطوع لإنقاذ السفينة .

ــ لكن الشيطان لا يتطوع لإنقاذ شيء ..

ونظر فى غير اكتراث إلى السماء الغارقة فى الدكنة ليريح قلبه من نظرات خصمه فقال حسن :

ــ يجب أن يذهب الإنجليز والملك والأحزاب وأن نبدأ من جديد .

فضحك عيسى فى مرارة ثم قال :

ــ حريق القاهرة أثبت أن الخونة أقوى من الحكومة والشعب معا .

ورجعت الأم وهى تقول :

ــ ألا يوجد حديث آخر ؟!

بدا خداها محتقنين وشبه متورمين . واتخذت مجلسها السابق وهى تسأل حسن :

ــ وأنت متى تتزوج ؟

وتذكر عيسى تقدمه الجرىء لخطبة سلوى فاشتد امتعاضه . فقير لكنه جرىء وطمع ولا شك فى مالها كآخر وسيلة لانتشاله من متاعبه . أما حسن فأجاب :

ــ الأحداث الهامة تقع فجأة وبلا سابق إنذار ..

ــ وأمك متى نراها ؟

ــ آه مسكنكم بعيد عن روض الفرج ولكنها ستجىء حتما .

ثم سأل عيسى وهو يتهيأ للقيام :

ــ أين تذهب هذا المساء ؟

فأجاب بتحد ولكن فى هدوء :

ــ إلى النادى ..

فنهض حسن وهو يقول :

ــ أستودعك الله .. وإلى اللقاء ..

٤

يوم الخطبة فى قصر على بك سليمان بهليوبوليس يوم يستحق الذكر . لم يكن ثمة فاصل حقيقى بين الجنسين فقد احتلا بهوين متصلين بمدخل مشترك يعد فى ذاته تحفة زخرفية . وأم عيسى وسلفتها أم حسن جلستا بين المدعوات فى البهو الأحمر ، وجلس فى البهو الأخضر ــ بين المدعوين من الأهل والأقارب ــ أصدقاء عيسى الحميمون سمير عبد الباقى وعباس صديق وإبراهيم خيرت وابن عمه حسن ، على حين استقبل البهو الكبير المتصل بالمدخل كبار المدعوين من أصدقاء على بك سليمان وجملتهم من رجال السراى أو من رجال القضاء ، كذلك معارف عيسى من رجال الحزب . وانكمشت أم عيسى وسلفتها تحت غمرة الأنوار الساطعة . فهذه الدنيا لا ينتميان إليها بسبب . ورغم الفستان النفيس التى تزينت به أم عيسى ، ورغم وقار الشيخوخة . ورغم ضعف الحواس وبخاصة البصر والسمع الذى أوهن انفعالها بالجو ، رغم ذلك كله فقد لاذت بالانطواء ولم تحاول فى مجلسها أن تمارس أى مظهر خليق بأم العريس . وعنيت سوسن هانم حرم على بك بمؤانستها عناية خاصة لتذهب عنها الوحشة فهى تحبها من قديم أو مذ كانت عروسا لعلى بك سليمان ، وحبها للعجوز كان ضمن الأسباب التى جعلتها توافق على قبول عيسى . وسوسن هانم فى أواسط الحلقة الخامسة ولكن لم يبق من جمالها إلا مسحة بسبب مرض الكبد المزمن وسوء حالة الكلية ، ولكن طولها وعرضها وبهاءها الفطرى أورثتها مزايا باهرة لا تبيد . وجعلت تقول لأم عيسى فى لطف بديع :

ــ لا تنسى أنك فى بيتك ..

وهجم حسن على أصدقاء عيسى فى مناقشة سياسية رغم معرفته البسيطة

بهم . وتابعه عيسى من بعيد بعض الوقت وكان يظن أنه سيحجم عن شهود الحفل فعجب لشأنه واقتنع بأنه يستطيع أن يتحدى الزمن نفسه إذا أراد . ولكن عيسى لم يستقر بمكان .

وخص مدعويه من الحزب بأخص مجاملاته . ولم يكن الجو فى البهو الكبير يخلو من حرج فقد واجه رجال الحزب رجال السراى ، ومع أن البعض ربطت بينهم مودات قديمة إلا أن الأغلبية من الطرفين تجاهلت بعضها البعض ، ولعب على بك سليمان دوره بكل لباقة ورحب بالجميع على قدم المساواة رغم أنه هو نفسه من رجال السراى . كان محاميا وسطا حتى رشحته السراى لوظيفة مستشار فى إحدى الحركات القضائية ولم يعرف بلون حزبى ثابت ولكنه اكتسى بشتى الألوان كقوس قزح ثم انضم إلى حزب الاتحاد فى الوقت المناسب وسار فى الركب الملكى حتى اعتلى أسمى مركز فى القضاء ، ومع أنه يقترب من الستين إلا أنه يتمتع بصحة وحيوية نادرتين . طويل القامة فى استقامة رياضية بديعة وعيناه السوداوان تحت حاجبيه الغزيرين الأسودين يهبانه جاذبية لا تقاوم . ودعم حياته فى مطلعها بمصاهرة آل همت ــ أسرة سوسن هانم ــ فمدّ رقعة أرضه وأصل الأرستقراطية فى ذريته ، وراح يضحك ويداعب مدعويه جميعا قائلا :

ــ من تفرقهم السياسة فلتجمعهم الأفراح !

وهمس شكرى باشا عبد الحليم فى أذن عيسى :

ــ ألا ترى أن قريبك يعترف فى دعابته بأن رجال الملك ــ والملك بالتالى ــ ليسوا فوق الأحزاب ؟!

ومال الشيخ عبد الستار السلهوبى برأسه نحوهما ليسمع الهمس فى اللحظة المناسبة ثم ضحك ضحكة صامتة وهمس بدوره :

ــ إذن فلتكن الأحزاب فوق الملك !

ومد بصره فى حذر إلى صورة الملك المعلقة بالجدار الأوسط للبهو فابتسم عيسى قائلا :

ــ لا تخف فإن اللعنات تنصب عليه فى المقاهى جهرة ..

ولكن مرارة السياسة ذابت فى شربات الحفل . عيسى نفسه وهو مخلوق سياسى قبل كل شىء أسلم نفسه بكليته إلى لذة الوجدان . ازين كأحسن مايكون ، وتجلى وجهه ذو الهيئة المثلثة فى أنفى مظهر ، وصفت عيناه المستديرتان . ولم تكن فرحته بمصاهرة المال والجاه لتذكر إلى فرحة قلبه بعروسه ، وأمله الصادق فى حياة هانئة حقا وغد مفعم بالمسرات ومستقبل واعد بمجد حقيقى . وتناسى حريق القاهرة وإقالة الوزارة ونقله إلى المحفوظات والفتور المحزن الذى اجتاح الحماس الشعبى والتقاعس الذى طوق الجهات الرسمية نحو الأمانى الوطنية والكآبة الدكناء التى خضبت الآفاق رغم انتشاء الحياة بمباهج الربيع . وكان عليه ألا يستقر فى مكان أكثر مما يجب الأمر الذى وافق رأسه المشتت بالانفعال . ومضى إلى سوسن هانم فتفقدا البوفيه معا وألقيا نظرة أخيرة على صورته المكتملة الزاخرة بالألوان . ثم قصد إلى البهو الأخضر فجلس بين أصدقائه الأعزاء الذين ود لو يبقى بينهم حتى تدعوه اللحظة الحاسمة . وقال إبراهيم خيرت وهو يسدد النظر إلى البهو الأحمر :

ــ ما أكثر اللحوم البيضاء وما أجملها !..

فتساءل عباس صديق مازحا :

ــ هل تقصد الحاجة أم عيسى ؟

ونظر عيسى إلى أمه فى فستانها النفيس المحتشم فارتاح إلى تفوقها على أم حسن فى الوقار رغم وسامة الأخيرة . وشكا عباس صديق إليه حسن قائلا :

ــ ابن عمك أعنف من حريق القاهرة !

فضحك حسن طويلا ، وعاد عباس يقول له بنبرة الناصح :

ــ تزوج أنت أيضا وسوف تقتنع بأن الحزبية ليست أسوأ الأشياء ..

وإذا بسمير عبد الباقى يقول :

ــ الحالة مضطربة جدا !

فأدرك الجميع أنه يتكلم فى السياسة ، وقال عيسى :

ــ هذا أمر محقق ..

فقال سمير بتوكيد :

ــ لكنها مضطربة أكثر من الظاهر المعروف ..

فقال حسن ساخرا :

ــ ربنا يكرمك ..!

ــ يقال ان الملك سيستأجر جنودا مرتزقة لأنه لم يعد يثق بأحد !

فقال عباس صديق ضاحكا :

ــ ليس أدل على سوء الحال من قول أحد الأحرار الدستوريين إنه يفضل عودة الوفد على تفسخ الوضع الراهن !

وقال حسن بإصرار :

ــ أسأل الله المزيد من الاضطراب والتفسخ ..

دعى عيسى إلى الداخل لإعلان الخطبة فتعلقت به الأبصار وساد الصمت . وصمت حسن أثقل الصمت . وانطلقت زغرودة سمعها كل من فى القصر . وطافت سلوى بين أمها وخطيبها بجميع الحاضرين قبل أن تتخذ مجلسها المجلل بالورود فى البهو الأحمر . جميلة حقا . عيون أبيها ركبت فى وجه بدرى شفاف البياض . واقتبست من أمها طولها الفارع البهى وعنقها الطويل النحيل ولكن انبعثت من عينيها نظرة رطيبة طيبة توحى بالوداعة والخلو التام تقريبا من الذكاء والحرارة . وجعلت تلتفت نحو أمها بصفة مستمرة كأنما تستلهمها الإرشاد والمعونة أو أنها تعانى فى أعماقها بوادر أزمة الانفصال عنها فى خوف وعدم ارتياح ، أما فستانها فقد تحدث المدعوون عنه طويلا ..

وتواصل الحفل ففنى جميع ما اكتظ به البوفيه من الشطائر والحلوى والأشربة وأخذ المدعوون فى الانصراف محملين بعلب الحلوى ، ثم خلت حجرة الجلوس المطلة على شارع البارون بفراندا ضخمة للخطيبين وسوسن هانم . وانتشر الليل فى

جو ربيعى صاف ، وامتدت عمالقة الأشجار المحدقة بالبستان مترنحة سابحة فى أمواج الضوء الساطع المتدفق من المصابيح الكهربية وهبت نسائم مرطبة ببرودة حنونة منعشة .

وقال عيسى :

ــ إنى أعتبر اليوم غاية سعادتى .

فهمست باسمة فى حياء :

ــ أشكرك .. وأرجو أن أعرب لك عن مشاعرى عندما أجد الشجاعة الكافية .

وتفحصتهما سوسن هانم بسعادة وهو تقول :

ــ ستتم سعادتنا بزواجكما فى يوليه بإذن الله ..

وتساءل عيسى متى يتاح له عناقها ؟! ، وثمل بسعادة دسمة لحد القلق . وقال لنفسه أنه يترسم خطى على بك سليمان . وسوف يفوز فى النهاية بمركز كمركزه . ولم يكن ذاق الحب إلا مرة وهو تلميذ بالثانوية . أحب يومذاك ممرضة على محطة الترام الصباحية واندفع بجنون . ولكن والده شكمه وروضه . ها هو اليوم بعد مرور حياة غير قصيرة ، وبعد أن امتحنته الدنيا بالسجن والضرب والمطاردة والرفع والخفض ، ها هو يخطب بعد انقطاع عن رؤية خطيبته لا يقل عن عشرة أعوام ، ولكنه فى الوقت نفسه عرف الحب وأترع برحيقه ، وكان يقبض بيديه على سعادة مضمونة ، وقال لها :

ــ أنت يا عزيزتى صورة من والدتك ، ولذلك فخيالى عاجز عن تصور سعادتى .

فضحكت سوسن هانم قائلة :

ــ أرجو أن تذكر كلامك هذا للمستقبل فإنه يقال إننا ــ الحموات ــ لا نسمع الكلام الجميل إلا فى هذه المناسبة .

وضحكت سلوى ضحكة رقيقة جدا فازداد عيسى سعادة وملكته فجأة

رغبة فى التباهى فسألها :

ــ ترى هل يضايقك العيش فى الخارج لو دفعتنا الظروف مستقبلا للعمل فى السلك السياسى ؟

فأجابت عنها أمها قائلة :

ــ سلوى متخرجة فى المدرسة الألمانية .

فابتسم معلنا عن ارتياحه ، ثم غمغم :

ــ ولتكن الحياة سعيدة ، شهدنا فى حياتنا آلاما حقيقية فلتكن سعادتنا حقيقية أيضا !..

٥

قال عيسى لسلوى :

ــ فى حياتنا سُر يجب أن تعرفيه ..

وهما يجلسان فى الفراندا المفعمة بعبير الورد والقرنفل . والمغيب يقترب نصف مسدل الجفنين ، والشمس تسحب أهدابها من هامات القصور ، والربيع يتنفس شبابا رائقا . وهما فى خلوة خلقها اختفاء سوسن هانم إلى حين ، يشربان الليمون من دورق بللورى على ترابيزة من القش الملون . وغمغمت سلوى متسائلة :

ــ سر ؟!

فارتفع نصفه الأعلى ابتداء من حاجبيه المستقيمين كما يفعل وهو يتأهب للحديث أو للخطابة ثم قال :

ــ نعم ، تظنين أننى تقدمت لخطبتك دون سابق رؤية ، ولكننى فى الحق أحببتك حبا عظيما قبل عشرة أعوام ، كنت وقتذاك فى العاشرة وكنت أنا فى العشرين ، وكنا نقيم فى بيت والدتى بالوايلية وأنتم كنتم فى الهرم ، وكان والدك ــ المحامى وقتذاك ــ على صلة وثيقة بأبى ويتبادلان الزيارة كثيرا ، وكنت جميلة جدا كما أنت اليوم فوقعت فى غرامك ، ألا تذكرين تلك الأيام ؟!

فتكتمت ضحكة بالعض على باطن شفتها وقالت :

ــ قليلا ، أذكر أننى رأيت صواريخ مولد النبى مرة عندكم ولكننى لا أذكر ذلك الغرام ..

فضحك وهو يطوح برأسه إلى الوراء فى حركة خاصة مقلدا دون قصد أحد باشوات الحزب وقال :

ـ ولا أحد يذكر ، ولكن المرحوم والدى ضبطنى مرة وأنا أحدق فيك بشغف وأخرى وأنا أقبلك !

ـ لا !

ـ نعم .. قبلة بريئة تناسب طفولتك ..

ـ لكنك لم تكن طفلا ..

ـ لكنك كنت طفلة ! ما علينا ، قال لى والدى عند ذلك اجتهد وأنت تتزوجها ، كن شابا لائقا بها وأنا أزوجك منها ! فسألته عن مدى اللياقة المطلوبة فقال لى إن على بك سليمان قريبه وحبيبه ولكن يجب أن تحوز القبول عند سوسن هانم ، وهى غنية لا تهمها الثروة ، ولكنها تريد لكريمتها شابا ناجحا ، قاضيا مثلا ، والحق أن كثيرين بهرهم صعودى السريع حتى صرت من كبار الموظفين بل ومن رجال السياسة فى هذه السن المبكرة ولكن أحدا لم يفطن إلى البواعث الحقيقية وراء ذلك النشاط الفذ .

فبسطت بحركة رشيقة مروحة عاجية صغيرة حتى تكشف صفحتها عن صورة بطة فى الماء ، وقالت فى سخرية وديعة :

ـ هذا رغم أنك لم تزرنا طوال عشرة أعوام !..

فقال جادا :

ـ لا تنسى أن والدك اختير مستشارا بعد ذلك فعمل أعواما ما بين أسيوط والإسكندرية ، ولا تنسى انغماسى فى السياسة بعد ذلك ..

فقالت وهى تبتسم فى دلال :

ـ وكيف عرفت أن العشرة الأعوام لم تصنع منى شيئا رديئا ؟

ـ قلبى !، أنا أومن بشعور القلب ، ولما رأيتك تضاعف إيمانى به ، وعليه فخطبتنا فى ظاهرها تقليدية ولكنها تطوى فى أعماقها قصة حب وإن يكن حبا من جانب واحد ..

وهمست وهى تنظر بعيدا :

ـ على أى حال لم تعد كذلك !

ضم ذقنها بين أصابع يده وأدار وجهها بلطف ومال برأسه حتى تلاقت شفتاه المشوقتان بشفتيها الرقيقتين فى نبضة متبادلة . وارتد وهو يبتسم فى سعادة حقيقية . وراح ينظر إلى مجامع أصص الزهور فى الفراندا بعينين غمرتهما العاطفة كما يغمر الضباب زجاج النافذة والقصة بعد ذلك ليست اختلاقا على طول الخط . طالما أعجب بجمالها فى ذلك العهد البعيد . وهو وإن لم يكن نسيها عشرة أعوام إلا أنه يحبها الآن حبا حقيقيا فما الضير فى سد الفجوة بكذبة بيضاء تشع حكمة وتضفى على علاقتهما جمالا ساحرا !. ولكن المحبوبة لا تريد أن تنفصل عن أمها كأن القابلة نسيت أن تقطع حبلها السرى فى حينه . وهو يتوجس من ذلك خيفة أحيانا ويتطلع بإلحاح إلى اليوم الذى يتم له امتلاكها حقا ، ونظرة الاسترشاد أو الاستئذان التى توليها إياها عند مقاطع الحديث تقلقه بعض الشىء . ولكن سعادته اكتسحت ذلك كله كما تكتسح الموجة العالية نفايات الساحل ثم تتركه أملس صافيا . وفقرها المدقع فى تجارب الحياة العادية أسعده . ولعله تملق شعوره بالاستعلاء كما لذه حنينها الدائم إلى الموسيقى واطلاعها الغنى على الرحلات ، وقال :

ـ حبك كنز ثمين لا يقدر بثمن ، وعندما جئت لمقابلتك أول مرة سألت الله أن أقع من نفسك موقعا حسنا ..

ـ كنت أراك قبل ذلك فى الصحف ..

فقال بارتياح :

ـ لو توقعت ذلك فى حينه لاستعددت استعدادا أكثر عناية للتصوير ..

ـ هذا لا يهم ألبتة ، ولكن سمعت أيضا عن « شقاوتك » فى السياسة ..

فضحك مطوحا برأسه إلى الوراء مرة أخرى على طريقة ذلك الباشا وقال :

ـ ترى ما رأيك فى ذلك ؟!.. أنا صديق عتيد لهراوات البوليس وزنزانات الأقسام والرفت والمطاردة . ترى ما رأيك فى ذلك ؟!

فعضت باطن شفتيها مرة أخرى وقالت :

ــ بابا يقول ...

وسرعان ما قاطعها :

ــ لا داعى للاستشهاد ببابا فى هذا الشأن ، أنا أعرف مقدما رأيه ، فهو من رجال الجانب الآخر ، وأنت لا تهتمين إلا بالموسيقى وكتب الرحلات ؟!.. عليك من الآن فصاعدا أن تعدى نفسك لدور زوجة الرجل السياسى بكل معنى الكلمة ..

ورجعت سوسن هانم إلى الحجرة فوقفت أمامهما وهى تقول بلهجة من يفضى بنتيجة مسعى قام به .

ــ ليكن الأمر كما تشاء ..

فوقف الشاب ببدلته الشاركسكين الناصعة البياض وهو يقول :

ــ شكرا يا هانم ..

ثم جلسا وهو يستطرد :

ــ ليكن الزواج إذا فى أغسطس ثم نسافر إلى أوروبا بعد ذلك مباشرة ...

وتلاقت النظرات فى ارتياح . وغاب آخر شعاع من الشمس . وربت عيسى على ركبتيه فجأة ثم قال مخاطبا سوسن هانم :

ــ كنت أحادث سلوى عن غرامى بها منذ عشرة أعوام !

فرفعت المرأة حاجبيها دهشة وقالت لابنتها محذرة :

ــ لا تصدقى كل شىء يا سلوى ، خطيبك سياسى وأنا أدرى بهؤلاء السياسيين !

وأغرق ثلاثتهم فى الضحك ..



ومال برأسه حتى تلاقت شفتاه المشوقتان بشفتيها الرقيقتين فى نبضة متبادلة وارتد وهو يبتسم فى سعادة حقيقية

(السمان والخريف)

٦

كان عيسى يتناول فطوره حين توقف الراديو عن إرساله المعتاد ليذيع بيان الجيش فى صباح ٢٣ يوليو ..

لم يفقه معنى ما تلقته أذناه بادئ الأمر . ثم وثب من مجلسه ليحملق فى الراديو وهو يلعق شفتيه . وترادفت الكلمات الغريبة لتصنع جملا مذهلة سرعان ما تنفجر الدهشة عند استيعاب معانيها . ودار رأسه كمن يخرج بغتة من ظلمة عمياء إلى نور باهر . وراح يتساءل ما معنى هذا !. ما معنى هذا ؟!.

ومضى إلى حجرة الجلوس فجلس إلى جانب أمه وهو يقول :

ـ أنباء خطيرة جدا ..

رفعت العجوز إليه عينيها الضعيفتين فقال :

ـ الجيش يتحدى الملك !

وهضمت المرأة الخبر بعسر شديد ثم تساءلت :

ـ كأيام عرابى باشا ؟!

آه .. كيف لم يرد هذا المعنى على ذهنه !؟. حقا انه فى نهاية من الاضطراب . وتمتم :

ـ نعم ، كأيام عرابى ..

فسألته بقلق :

ـ وهل تقوم الحرب ؟

آه .. ماذا سيقع حقا !؟. ليس فى القاهرة الآن شخصية واحدة يمكن الرجوع إليها لاستقاء الأنباء . وإذا كان هو لم يقم فى إجازة فما ذلك إلا لأنه أجل إجازته لحين سفره إلى الخارج .

ـ كلا ، للجيش مطالب وسوف تتحقق مطالبه ، هذا كل ما فى الأمر ..

وسافر إلى الإسكندرية . ها هو الطاغية يتلقى صفعة فولاذية . لتكن صفعة بقوة طغيانه . فلتكن قاضية . وليحترق باجترار آثامه . انظر إلى عواقب غيك وحماقتك . ولكن أين تقف هذه الحركة ؟! وما الدور الذى سيلعبه الحزب ؟ الأمل أحيانا يسكره ، وأحيانا يدوخه إحساس كالذى يخالج الكلاب قبيل الزلازل . ووجد عبد الحليم باشا شكرى فى أثنيوس مرتديا بدلة بيضاء من الحرير الطبيعى مغروزا فى عروة جاكتتها وردة حمراء قانية ، وأمامه قدح من البيرة الاستوت لم يبق فيها إلا رغوة كاليود ، وقال له الباشا وهو يضيق عينيه فى فتور :

ـ دعك من مطالب الجيش ، الحركة أكبر من ذلك ، المطالب يمكن أن تتحقق اليوم ثم يشنق مقدموها غدا ، كلا يا أستاذ ، ولكن من الصعب جدا التكهن بما وراء ذلك ..

ـ أليس عند سعادتك أخبار ؟

ـ الحوادث أسرع من التنبؤ ، كان يجلس مكانك منذ ساعة مستر جودوين الصحفى الإنجليزى وقد أكد لى أن الملك قد انتهى ..

فاستكان للدهشة الطاغية دقيقة ثم تساءل :

ـ أليس لنا علاقة بهذا الأمر ؟

ـ لا يمكن الجزم بشىء من هؤلاء الضباط ؟ ولا تنس أن زعماءنا فى الخارج .

ـ قد يكون لسفرهم علاقة بالحركة .

وأبى وجهه أن يتفاءل واكتفى بأن قال بصوت لا يكاد يسمع :

ـ قد !

وأكثرا من الكلام وأعاداه دون أن يضيفا إليه جديدا ولكنه انقلب غاية فى ذاته وجدا فيها متنفسا عن القلق .

وفى فيللته بسيدى بشر استلقى على بك سليمان على كرسى خيزران هزاز ،

شاحب الوجه ، مغضن الجبين بعبوسة ثابتة ، وفى عينيه نظرة مريضة خسرت جمالها الطبيعى وكبرياءها المأثور . ولما رآه مقبلا تطلع إليه باهتمام شديد وسأله بلهفة :

ـ ما وراءك ؟

وجلس عيسى وهو يشعر بثقل نظرات الرجل وزوجه وكريمته ثم قال بهدوء ظاهرى واعتزاز خفى بما سيضيفه إلى الموقف من جديد :

ـ الملك انتهى .

وانطفأ آخر قبس فى عينى الرجل ، وألقى نظرة عليلة على البحر المعربد من خلال الشرفة ، ثم تساءل :

ـ وأنت .. أعنى أنتم .. هل أنتم موافقون ؟

استمتع بلحظة اعتزاز كاذب تأرجحت فوق جرح أليم ، وتمتم :

ـ الملك عدونا التقليدى .

اعتدل البك فى جلسته وسأله :

ـ هل للحزب علاقة بما يحدث ؟

ود لو يستطيع أن يجيب بالإيجاب أمام الأعين المحدقة ولكنه قال وهو يدارى تعاسته :

ـ لا أدرى عن هذا شيئا .

ـ لكنك تستطيع أن تدرى بلا شك .

ـ ولا أحد ممن قابلتهم يدرى ، وزعماؤنا الحقيقيون فى الخارج كما تعلم سعادتك .

فنفخ الرجل بضيق شديد وقال :

ـ نسينا بسرعة درس عرابى وعما قليل سيزحف الإنجليز .

فتساءل عيسى قلقا :

ـ هل من أنباء عن ذلك ؟

فلوح الرجل بيده ساخطا على حين سألته سوسن هانم :

ـ ألا يحسن أن نذهب إلى العزبة ؟

فأجابها بفتور :

ـ لا أحد يدرى ما هو الأحسن .

وانطلقت الأحداث حتى غادر الملك البلاد ، وشهد عيسى ذلك فى الإسكندرية ورأى بعينيه تحركات الجيش ، كما رأى المظاهرات الصاخبة . وعانى طوال الوقت من عواطف متضاربة أطاحت به فى دوامة ما لها من قرار . شعر بفرحة كبرى عزت على التصديق والتأمل ، وشفت صدره من آلام المقت المكبوت . ولكن هذه الفرحة لم تنطلق إلى ما لا نهاية ، وإنما ارتطمت بسحائب دكناء كدرت بعض الشيء صفاءها . أهو رد الفعل الطبيعى لكل شعور عنيف !، أم هو رثاء تجود به النفس المطمئنة أمام جنة غريمها الجبار ؟، أم أن تحقيق هدف من أهدافنا الكبرى يعنى فى الوقت ذاته زوال سبب من أسباب حماسنا للوجود ؟، أم أنه عز عليه أن يتحقق هذا النصر الكبير من غير أن يكون لحزبه الفضل الأول فيه ؟.

وهكذا وجد زوار عبد الحليم باشا شكرى فى قصره بزيزنيا . كانوا مزيجا من السرور والوجوم والقلق . وراح الباشا يقول :

ـ سبحان من له الدوام .

وبطريقته الخطابية فى الحديث قال الشيخ عبد الستار السلهوبى عضو الشيوخ :

ـ انتهى فاروق ولكننا نريد أن نطمئن على أنفسنا .

وتمطت موجة من الضحك العصبى الخالى من السرور الحقيقى غير أن عيسى تساءل وهو يجلس إلى جانب أصدقائه سمير عبد الباقى وعباس صديق وإبراهيم خيرت :

ـ ماذا عن المستقبل ؟

فأجابه عبد الحليم باشا شكرى متجاهلا الغرض الحقيقى من السؤال :

ـ سيكون خيرا من الماضى بلا ريب !

فقال له الشيخ عبد الستار السلهوبى :

ـ لعله يسأل عن مستقبلنا نحن .؟

فقال الباشا بوجه غير معبر كما يجدر بسياسى عتيق :

ـ سيكون لنا دورنا بغير جدال .

واهتز جذع الشيخ عبد الستار كالمقرئ فى الفترات المتخللة للتلاوة ثم قال بعنف :

ـ هذه الحركة ليست فى صالحنا .. إنى أشم الخطر على بعد آلاف الأميال ، يوم ألغيت المعاهدة خسرنا الملك والإنجليز ، واليوم سنخسر كل شىء .

فقال سمير عبد الباقى :

ـ نحن آخر من يتوقع الخطر أو هذا ما ينبغى .

وقال إبراهيم خيرت :

ـ إن ما حدث اليوم هو ما كنا نفعله لو ملكنا القوة اللازمة .

فقال الشيخ عبد الستار ساخرا :

ـ ولكننا لم نفعله يا سى عمر !

وتجمع الماضى فى خيال عيسى كقبضة عنيفة مفعمة بالجلال والحزن . وحدثه قلبه بأن ذلك الماضى يتبلور الآن فى صورة فقاعة لن تلبث أن تنفجر . وان وجها جديدا من الحياة يسفر عن صفحته رويدا رويدا حافلا بالجدة والغرابة . وأن بوسعه أن يتعرف على هذا الوجه لأنه سبق له أن لمحه هنا أو هناك ، ولكن من أين لهذا الوجه أن يتعرف عليه هو داخل الفقاعة المتفجرة ؟ ثم استراحت عيناه عند صور فنية معلقة على الجدار فوق المدفأة الباردة ، تعرض زنجية غليظة الشفتين جاحظة العينين فى غير دمامة ، تحدق فى وجهه بنظرة حسية وقحة ناطقة بالإغراء والتحدى ..

٧

وشحن الجو باحتمالات شتى متناقضة ولكنها اتفقت جميعا على انتزاع الطمأنينة من نفسه فكابد حياته بأعصاب عارية ، وبات تأجيل زواجه أمرا محتوما حتى تستقر الأرض تحت قدميه وحتى يسترد حموه وعيه . وانتصبت علامات الاستفهام أمام عينيه وأعين أصحابه كالرايات السود على السواحل عند هياج البحر ومضغوا الشائعات كالعلقم . ثم علم أن حسن ابن عمه اختير لوظيفة مهمة وأن الباب انفتح أمامه إلى مراكز أهم وأخطر مما قطع بأنه من أهل الدنيا الجديدة وقد صعقه الخبر أشد مما صعقته الأحداث ، ولبث مدة لا يدرى كيف يبلغه أمه ولكن العجوز لم تفهم الأمور على حقيقتها وقالت ببلاهة :

ـ سيأتى دورك ، لا تحزن ، أنت تستحق كل خير .

وقال لنفسه ما أجمل أن يعيش الإنسان بعيدا عن منطقة الوعى ! ثم أعلن عن نظام التطهير . وقرأه بانتباه جنونى ومرارة ويأس . سيدركه الدمار الذى يحيق بالأحزاب والزعماء ستقتلع الجذور التى تثبته بأرضه جذرا بعد جذر . وما أغرب ما يقع اليوم مما لم يكن يتخيله أحد . ها هو صديقه إبراهيم خيرت المحامى وعضو مجلس النواب السابق يتحمس للثورة بقلمه فى أكثر من صحيفة كأنه ضابط من رجالها ! ويهاجم الأحزاب ـ وحزبه ضمنها طبعا ـ والعهد البائد كأنما لم يكن أحد رجاله . وعباس صديق آمن مطمئن غير مكترث للأحداث إذا وجد ظهرا يحميه فى العهد الجديد بل واصل طموحه إلى الترقى بأمل أقوى مما كان . سمير عبد الباقى وحده الذى شاركه القلق والخوف والمصير ، وهو شاب نحيل رقيق قمحى البشرة تشع من عينيه الخضراوين نظرة حالمة فوجد عنده بعض العزاء ، وسأله :

ــ كيف تتصور أن يكون مصيرنا ؟

فقال وهو يبتسم ابتسامة باهتة :

ــ الطرد أقل ما ينتظرنا .

فسأله بحلق جاف :

ــ ما عسى أن نفعل ؟

ــ معاش لا قيمة له ولكننا قد نجد عملا فى شركة .

ــ ترى هل يتيسر لنا ذلك ، وهل نجد الشجاعة لنبدأ من أول الطريق من جديد ؟!

وهز الآخر رأسا لا يعد الشيب نادرة فى سواده وغمغم بلا روح :

ــ عسى أن تكذب الأحداث ظنوننا .

وتراكمت الشكاوى فى لجنة التطهير كالزبالة . وعلم عيسى أن كثيرا منها يستهدف القضاء عليه . ولم يستغرب ذلك بطبيعة الحال فإن أعداءه من المسئولين فى الوزارة أكثر من أصدقائه ، وأضاف إليهم الحاقدين والحاسدين والذين يتطوعون للشر عند أى مناسبة . بل من هؤلاء وأولئك من تحداه علنا فى الوزارة بلا سبب ، ومن عرض به ساخرا وجها لوجه ، وحتى بعض مرءوسيه استباح لنفسه الاستهانة به حتى انقلبت الوزارة ركنا من الجحيم .

ثم استدعى للمثول أمام لجنة التطهير . وكانت اللجنة تجلس وراء مائدة خضراء امتدت فى عرض الحجرة بمكتب المستشار القانونى للوزارة ، واحتلت السكرتارية الجناح الأيمن ، على حين دعى هو للجلوس أمام الأعضاء فى الناحية المقابلة من المائدة ، لمح مكان صورة الملك أخرى تحمل اسم الله ، ونقل بصره بين الوجوه فعرف فى ممثل مجلس الدولة زميلا قديما فى لجنة الطلبة كاد يهلك معه يوما فى مظاهرة أمام بيت الأمة فبل منظره ريقه ولكن الأعين جعلت تنظر إليه برزانة أو تلقى على الأضابير نظرات ولم يبد على أحد منهم أنه زامله يوما ما بالرغم من وجود مراقب المستخدمين ومدير الإدارة العامة بينهم . وكان شخصه يهز كثيرين

من أعضاء اللجنة فى الماضى حتى وحزبه خارج الحكم ولكن حلت الحيدة الباردة محل العرفان والعاطفة وسرى فى جو الحجرة الكبيرة العالية السقف ذات الجدران القاتمة المشبعة برائحة السجائر العطنة روح رهبة ثلجية ، ومن خلال زجاج الباب المغلق انقضت حدأة على الشرفة الخارجية ثم ارتفعت بسرعة خاطفة وهى تطلق صوتا كالنواح .

وحدجه الرئيس بنظرة طويلة من نظارته الكحلية المذهبة وقال :

ــ أرجو أن تطمئن كل الاطمئنان إلى عدالتنا فهى لا تبتغى إلا وجه الحق وحده .

فقال بهدوء باسم ليستر يأسه :

ــ لا شك عندى فى ذلك .

ــ وأحب أن تعلم أن المهمة التى كلفنا بها غايتها المصلحة العامة لا الانتقام ولا أى غرض آخر .

فقال وهو يهبط درجات جديدة فى أحضان اليأس :

ــ لا شك عندى فى ذلك أيضا .

وصدرت إشارة إلى السكرتارية فتليت العرائض تباعا . بعضها موجه من موظفين والبعض الآخر من عمد . وانقلب صوت قارئ العرائض رتيبا كملقن الأموات ، وأغمض عيسى عينيه ابتغاء تركيز أشد ولكن التهم جميعا انصبت على تعيين العمد بالحزبية والهدايا فتشتت فى التكرار تركيزه وذاب فى الظلمة التى اختارها . ومن خلال ضباب أحمر انغرزت فى أذنيه السهام ورغم الجهد المبذول للتركيز اعترضته الذاكرة بصورة قديمة جدا مخضلة كأعشاب الطفولة اليانعة وهو عائد من ملعب كرة فى الخلاء المحدق بالوايلية فى يوم انهل مطره كالسيل فلم يجد ما يحتمى به من انفعال السماء إلا أسفل عربة زبالة . وتساءل عن معنى هذا كله . وفتح عينيه فرأى الوجوه وهى تتموج ، وللحظة قصيرة خيل إليه أن فردة شارب المستشار اليسرى موصولة بفردة شارب ممثل مجلس الدولة اليمنى ، وسئل

عن رأيه . أى رأى ؟! وقال بحدة قاهرة :

ــ كلام فارغ ، أريد دليلا واحدا .

وامتلأ قوة ولكنه سرعان ما باخ وتهاوى كورقة خضار ذابلة صفراء . قال الرئيس :

ــ كان الوزير يعتمد ترشيحاتك فأنت أول مسئول .

ــ كان ذلك ضمن واجباتى وقد أديته بما يرضى ضميرى .

ــ هل من سبب غير الحزبية يمكن أن يفسر لنا عزل وتعيين العمد ؟

فقال وهو يحاول أن يسيطر على لهاثه وتهدجه :

ــ لتكن الحزبية هى السبب ألم تكن من مقومات حياتنا الماضية ؟

ــ هل أنت مقتنع بصحة تصرفاتك ؟

ــ أرى أنها كانت طبيعية جدا .

فتساءل الرجل وهو يلعب بالباركر فى يده :

ــ والهدايا ؟!

فاندفع يقول بحدة :

ــ قلت إنه كلام فارغ . أريد دليلا واحدا .

وتليت أسماء الشهود من العمد أنفسهم فهتف :

ــ ما قيمة الدس الوضيع ؟

ثم استدعى موظفون ممن عملوا معه على فترات متتابعة فأدلوا بأقوالهم وعرضت عليه توقيعات بخط يده لترقية موظفين بصفة استثنائية ولأداء خدمات فى الرى والزراعة وبعضها يوصى بمجرمين ريفيين ممن تربطهم صلات الرعاية أو القربى بنواب سابقين . وامتد الوقت حتى فقدت الأشياء ألوانها . وصاح بعصبية :

ــ دلونى على موظف واحد يستحق البقاء !

وتصدى له عضو فى اللجنة لم يعرفه من قبل فتكلم بعنف عن واجبات

الموظف نحو الشعب ثم قال :

ــ الثورة صادقة العزم على تطهير الجهاز الحكومى من كافة أنواع الفساد . وأؤكد لك أن المستقبل لن يرى مصريا واحدا مهضوم الحق ، ولا مصريا واحدا يؤثر بأى لون من ألوان الخير أو الامتياز لانتمائه إلى فرد أو أسرة أو هيئة .

ونصحه شىء فى أعماقه بألا يتعرض لمناقشة هذا العضو فلاذ بالصمت . واستمر التحقيق حتى الرابعة مساء ، ثم غادر اللجنة كعود جاف مقصف اخترمته دودة عاتية ! واخترق إلى الدقى طرقات غرقت ــ كقارة أطلس ــ بجميع أبعادها وأحيائها وجمادها تحت أمواج ذاته الهائجة المتلاطمة حتى لم يعد يرى أو يسمع أو يعى إلا القلق الشيطانى بأشواكه الحادة ومكره القاسى . وتساءلت الأم العجوز :

ــ لِم لا تحدث فى أمرك ابن عمك وهو منهم ؟!

لدغته وصيتها فانفجرت فى عينيه نظرة جنونية من الغضب .

البوديجا قهوته المختارة فمضى إليها . فى مثل هذا الوقت من الظهيرة ليس ثمة أمل فى أن يجد فى مجلسه أحدا من أصدقائه فراح يحتسى الشاى وحيدا وصورته فى إحدى المرايا المصقولة تؤانسه رغم كآبة منظرها . ووجد الجماعة تلعب النرد وتتحمس حتى الجنون لما يجيء به الزهر ، وجد فيها أصدق مثال للامبالاة التى تلقت بها الدنيا كارثته فتحول عنها وعن الغارقين فى دخان النارجيلة إلى صورته الكئيبة . لو نطقت هذه الصورة لوجدت حقا من يفهمنى . خبرنى ماذا فعلت ، ولم لم تقرأ المستقبل إذ هو على بعد ساعات منك على حين تؤكد أخبارا وقعت فوق سطح الأرض منذ ملايين السنين . وهذا الوجه ذو الرأس الكبير والهيئة المثلثة الذى مدحه أحد الشعراء فشبهه بدلتا النيل ، وهذا الوجه الذى كان مرشحا للصفحات الأولى من الصحف ، ما باله يندثر كالديناصور عملاق الأساطير البائدة . وكالشاى الذى تحتسيه المقتلع من أرضه الطيبة فى سيلان ليستقر آخر الأمر فى مجارى القاهرة . وإذا علوت بضعة آلاف من الأقدام فى الفضاء فلن ترى فوق سطح الأرض حيا ولن تسمع صوتا إذ يذوب كل شيء فى حقارة رهيبة كونية . والماضى الضخم الذى ما زالت أنفاسه تتردد على وجهك تقطع القرائن بأنه سيتحلل وشيكا ويتعفن ولن تبقى منه إلا على رائحة كريهة .

وارتفع صوت يقول فى عصبية :

ــ قلبى يحدثنى بأننى سأجدك هنا ..

وأقبل سمير عبد الباقى فجلس إلى جانبه بوجه شاحب ونظرة منكسرة كأنما تطالعه من وراء قضبان . وفرح عيسى به فرحة جعلته يشد على يده بقوة نابضة بالاستغاثة . وعاد سمير يؤكد :

ــ قلبى يحدثنى بأننى سأجدك هنا !

فضحك عيسى ضحكة عالية اختلج لها جفنا صاحب القهوة وراء طاولته ثم قال :

ــ ولن تجدنى منذ اليوم إلا هنا !

٨

واستدعاه مراقب المستخدمين ليبلغه قرار إحالته إلى المعاش مع ضم سنتين إلى مدة خدمته . وهو نفس المراقب الذى كتب مذكرات ترقياته الاستثنائية التى توجت بترقيته إلى الدرجة الثانية .. ولعله ما زال يحتفظ بمشروع مذكرة لترقيته إلى الدرجة الأولى كانت قد أعدت لرفعها إلى مجلس الوزراء قبيل إلغاء المعاهدة بأسبوع واحد ثم لم تحظ بفرصة لاعتمادها فى غمار الأحداث التى أعقبت إلغاء المعاهدة ، ولم يكن للرجل لون حزبى ولكنه لم يشك لحظة فى كراهيته له لتساويه معه فى الدرجة رغم فارق السن الشاسع بينهما . وتأثر المراقب بمأساة الموقف فانتهز خلو الحجرة من أى مستمع وقال له :

ــ لا يعلم إلا الله مدى حزنى يا أستاذ عيسى ..

فشكره وهو على يقين من مدى كذبه فثمانية أعوام فى معاشرة الموظفين كافية جدا ليجيد ترجمة مصطلحاتهم المحفوظة فى المجاملات إلى معانيها الحقيقية . وها هو ملف خدمته مطروحا على مكتبه ، وها هو اسمه مخطوطا على غلافه بالفارسى « عيسى إبراهيم الدباغ » فرآه بعين الخيال وهو يلقى فى الدفترخانة ليقبر هنالك إلى الأبد بكل ما يسجل فى أوراقه من توقيعات تاريخية تشهد له بالامتياز وتبشره بأسعد مستقبل . وسأل عن مقدار معاشه فأجاب المراقب :

ــ اثنا عشر جنيها ولكنك ستقبض مرتبك كاملا لمدة عامين ..

وغادر الوزارة بعينين تحملقان فى داخل رأسه . أيقن الآن أنه قضى عليه بأن يعانى التاريخ فى إحدى لحظات عنفه حين ينسى وهو يثب وثبة خطيرة مخلوقاته التى يحملها فوق ظهره فلا يبالى أيها يبقى وأيها يختل توازنه فيهوى . ومشى طويلا فى دفء الشمس دون هدف وفى غفلة تامة عن الشوارع التى يخبط فيها . تذكر

فرنا إليه بنظرة ميتة من عينيه الخضراوين وقال :

ــ وأنا كذلك اليوم ، وقد غادرت الوزارة لآخر مرة ..

وتبادلا نظرة طويلة مغرورقة باليأس ، ثم اجتاح عيسى مرح غريب لكنه مريب غير أصيل كأنه منبعث من خمر أو مخدر وتساءل :

ــ وما العمل ؟

ــ لدينا هدنة عامين بمرتب كامل .

ــ وبعد ذلك !

ــ يمكن أن نجد عملا فى شركة .

فتساءل عيسى بارتياب :

ــ وأى شركة تجازف بقبولنا ؟!

فقال سمير متنهدا :

ــ لا بد لكل مشكلة من حل ..

ومضى فى طريقه إلى مسكنه وهو ينظر إلى الناس بغرابة كأنما يراهم لأول مرة . وهم غرباء لا يمتون إليه بسبب ولا يمت إليهم بسبب ، وهو منفى فى مدينته الكبيرة ، مطارد بغير مطاردة ، وعجب كيف انهارت الأرض تحت قدميه فجأة كأنها نفخة من تراب ، وكيف تقوضت الأركان التى قاومت الدهر ربع قرن من الزمان .. وألقى نظرة على وجه أمه الذابل ثم دهمها بالخبر فوضعت راحتها فوق يافوخها كأنما لتوقف الألم المتصاعد وتأوهت متسائلة :

ــ لِم يفعلون بك ذلك يا بنى ؟

من الخير أنها لا تدرى شيئا . وراح يتجول فى المسكن على مهل . يا له من مقام نفيس لا يمكن الاحتفاظ به بعد الآن . مرتب عامين ورصيد فى البنك من نفحات العمد . ولكن هل يكفيه ذلك إلا عامين آخرين ؟! وجميع هذه التحف التى تزين المدخل والاستقبال والمكتبة هى أيضا « هدايا » . أجل إن المذنبين أضعاف المطرودين ولكنه مذنب وأصحابه مذنبون . أين الأيام البعيدة الطاهرة



وتأوهت متسائلة :

ــ لِم يفعلون بك ذلك يا بنى ؟

ين !. أما الختام فهدايا محرمة وفساد ثم الضياع المباغت وهو على عتبة المناصب العالية المؤدية إلى كرسى الوزارة!. وكيف تعيش فى دنيا من الناسين والمتجاهلين والشامتين وقد طويت الأمجاد كأن لم تكن ونشرت الأخطاء كالأعلام ؟!

وذهب عصرا إلى فيللا على بك سليمان تحت سماء ملبدة بالغيوم وقد عصفت بالجو ريح باردة أثارت غبار الأرض كالخماسين .. وفكر وهو يصعد السلم المرمرى العريض بأنه لولا الحصانة القضائية لقذف بعلى بك سليمان إلى جانبه فى الشارع . وكان البك فى الخارج وسوسن هانم فى الفراش متوعكة بنزلة برد ثم جاءت سلوى فى روب من المخمل الأزرق سطع من طوقه وجهها كالضياء . وهو وجه على جماله شحيح التعبير فلم يستطع أن يقرأ فى صفحته أثر الأحداث ولكن قلبه المكروب اهتز لمرآه ونبض فيه الشوق كلحن قلق . وقال لنفسه إنها القيمة الوحيدة الباقية لى فى الحياة . وتساءل فى اللحظة التالية ترى هل هى « لى » حقا ؟!. ورغبة فى حسم الوساوس قال بإيحاء مخيف :

ـ سلوى ... أحالونى إلى المعاش ...

اختلجت عيناها الجميلتان الخاملتان وهمست فى ذهول :

ـ أنت ؟!

فقال مسلما أمره للمقادير :

ـ نعم أنا كما يقع للكثيرين فى هذه الأيام .

فحدجته باستغراب قائلة :

ـ ولكنك لست كالآخرين !

فوخزه قولها كطعنة فى العين ، وترنح خياله مندعرا بين التحف ورصيد البنك ثم قال :

ـ إنهم ينتقمون منا باسم التطهير .

امتد بصرها عفوا إلى تمثال برونزى لفارس مغربى يمتطى جوادا كأنما تستلهمه الرأى ثم تمتمت :

ـ تصرف غير لائق !

فتشجع قائلا :

ـ سوف أجد عملا خيرا من وظيفتى ..

وابتسمت كأنما لتعتذر عن فتورها المتزايد وتساءلت :

ـ أين ؟

وتساءل هو عن مدى حبها وعما تضمره له الأيام من غدر جديد ولعن فى سره صورة رئيس لجنة التطهير التى اقتحمت خياله فجأة ، ثم أجاب :

ـ فى شركة أو فى العمل الحر .

وبرز طرف لسانها ليرطب شفتيها فى حركة طبيعية وشت بنسيانها لنفسها فأدرك مدى الخيبة التى تعانيها وقال برجاء :

ـ دعينى أستمد القوة منك !

فابتسم فوها وحده وغمغمت :

ـ أتمنى لك النجاح ..

فطرح يده على يدها المبسوطة فوق ذراع المقعد وقال فيما يشبه الهمس :

ـ الحزب يهزأ بأمثال هذه المشكلات بكل بساطة ..

ـ نعم .. نعم ..

قد تكون فاترة الطبع ولكنها تحبه بلا ريب . وجاءه دافع قهار ليضمها إلى صدره فمال نحوها وطوقها بذراعه ، وعندما رشقته بنظرة مخملية واستسلم جذعها لذراعه تطايرت من كمده شرارة جنسية مباغتة فانكفأ بوجهه على وجهها ضاغطا بشفتيه المتوثبتين شفتيها الرقيقتين مذعنا لتحريض شهوة طامحة للعزاء ولكنها أوقفته براحة مبسوطة وأدارت وجهها لتتخلص من هجمته فانفصلا وهما يلهثان . وانفصلا أكثر بصمت رهيب تبادلا فيه العتاب من ناحية والاعتذار من ناحية أخرى عن طريق قراءة الأفكار المحمومة ثم خرج صوته من المعمعة كسيرا وهو يقول :

ــ سلوى .. أنا أحبك .. حياتى كلها تتلخص فى شيء واحد هو أنت ..

فربتت على يده برقة ورثاء فقال :

ــ يجب أن تتكلمى ..

فتنفست بعمق لتستعيد توازنها ثم قالت :

ــ علينا أن نواجه الحياة بكل ما فيها ..

وصغى إلى عذوبة النغمة بارتياح عميق . وود أن يغيبا عن الدنيا فى مكان مجهول إلى الأبد . مكان لا سياسة فيه ولا وظائف ولا ثورات ولا ماضى له .

وسألها بصوت مبتهج لأول مرة :

ــ هل تهبيننى الثقة والتشجيع ؟

فقالت وهى تجفف شفتيها بمنديلها :

ــ لك ما تريد وأكثر ..

وجاءته رغبة جديدة فى معانقتها ولكن صوت على بك سليمان تردد خارج الحجرة كأنما يعلن عن مقدمه .

٩

أقبل البك نحوهما شبه مبتسم ، ومكث معهما قليلا ، ثم دعا عيسى إلى الاجتماع به فى حجرة مكتبه ، وبدا جو الحجرة فى شبه ظلام لبعدها عن الطريق ولشدة اكفهرار الجو فى الخارج فأضاء مصابيحها . وجعل عيسى ينظر إليه بعناية فقرأ فى أعماق عينيه تجهما فتساءل ترى ألهذا علاقة به أم أنه العاقبة الحتمية للأحداث ؟. وحانت منه التفاتة إلى فوق . فرأى صورة للبك فى التشريفة القضائية قد حلت محل الصورة التقليدية للملك .

وتساءل على بك سليمان :

ــ كيف الأحوال ؟

فتظاهر عيسى بالاستخفاف وهو يقول :

ــ سأبدأ من جديد ؟

وقص عليه مأساته فى كلمات من وجهة نظره فتفكر الرجل قليلا ثم قال :

ــ لن تجد الأمر سهلا ..

ــ أعلم ذلك ولكننى غير يائس ..

ولاحت فى عينى البك نظرة جادة لدرجة مثيرة ثم قال بنبرة الاعتراف :

ــ الحق أن الحكاية لم تكن مفاجأة لى !

ــ لعل رئيس اللجنة قد أبلغها سعادتك ؟

ــ نعم .

ــ ألم يكن فى الإمكان ....

ــ كلا ، الرجل صديق حقا ولكن اللجنة أقوى من رئيسها والخوف قد ركب الجميع ..

فقال بامتعاض :

ــ على أى حال ما فات فات ، فلنفكر فى المستقبل ..

ــ هذا خير ما نفعل ..

فقال عيسى متحديا المجهول :

ــ عن ذلك حادثت سلوى .

ــ سلوى ؟!.. هل أخبرتها حقا ؟

ــ هذا طبيعى جدا ..

بعد تردد :

ــ بكل شىء ؟!

فحدجه بنظرة مريبة وقال بشىء من الحدة :

ــ طبعا !

ــ وماذا قالت ؟

فقال وهو يتوثب فى باطنه لجميع الاحتمالات :

ــ ما ينتظر منها ، فهى معى فى الخير والشر على السواء !.

نقر الرجل بأصبعه على الكساء البللورى للمكتب ثم قال :

ــ أحب أن أكون صريحا معك ، الزواج الآن ليس من العقل فى شىء !

ــ هذا حق الآن !

وهز الرجل رأسه كأنما يخفى أكثر مما صرح به ، فقال عيسى ليسبر أغواره :

ــ ما أنا إلا ضحية سياسية !

فرفع الرجل حاجبيه الغزيرين دون ما إفصاح فراح الآخر يقول بغيظ :

ــ طالما كان لى الشرف بأن أكون كذلك ..

وإذا بالبك يقول فى ضجر :

ــ ولكن السياسة لم تكن هذه المرة وحدها !

وتلاقت العينان فى نظرة مزعجة فاجتاحت عيسى موجة عاتية من الغضب

وتساءل بصوت متهدج :

ــ مزيدا من الشرح من فضلك ؟!

فقال الآخر فى امتعاض وحزن :

ــ أنت تعرف ما أعنيه يا عيسى ...

فسأله بحدة أسمعت أركان الحجرة الوقور :

ــ أبك شك من ناحيتى ؟!

ــ لم أقل هذا ..

ــ إذن ما تقصد ؟

فقال وهو يقطب استياء من حدة لهجته :

ــ القرائن خطيرة ..

فهتف :

ــ بل هى حقيرة لدرجة أنه لا يمكن أن يهضمها إلا عقل حقير !.

ــ الظاهر أن أعصابك ..

ــ أعصابى كالحديد وأنا أعنى كل كلمة تفوهت بها .

فاحتد الرجل قائلا :

ــ إذا أثرت غضبى فسيكون أمرا مؤسفا حقا !

ولم يكن بقى له من أمل فى سلوى أكثر من واحد فى المائة فصاح بجنون :

ــ لا أبالى كيف يكون الأمر ، وأيا كانت خطورة القرائن التى تذكرها فإننى لم أكن يوما انتهازيا ولم يكن للملك السابق فضل على ..

وهب الرجل واقفا ووجهه يقطر غضبا قانيا ، وأشار إلى الباب بذراع متشنجة دون أن ينبس بكلمة . وهكذا غادر عيسى الحجرة .

ورغم ذلك كله قرر ألا يذعن لليأس قبل أن يستميت فى الدفاع عن ركن

العزاء الذى لم يتهدم . يجب أن تكون الكلمة الأخيرة لسلوى دون غيرها . ولم يكن ينتظر الكثير من شخصيتها ولا من حبها ومع ذلك طلبها عصر اليوم التالى فى التليفون ، وقال لها بتوسل :

ــ سلوى .. يجب أن أقابلك فورا ..

وجاءه الجواب كالصفعة ..

١٠

ــ لا مشكلة بلا حل !

هكذا تكلم إبراهيم خيرت فى ركنهم الخاص بالبوديجا . وهو لضآلة جسمه وقصر قامته يقعد قريبا من حافة الكرسى ليتمكن من إيصال قدميه إلى الأرض ويعقد جبينه فى مقدمة رأسه الضخم ليضفى على شخصيته جدية تصد عنها الهازلين . وتكومت فوق كرسيين متلاصقين معاطفهم وتقاربت رءوسهم فى القهوة المزدحمة الصاخبة . وقال عيسى لنفسه إنه ــ إبراهيم خيرت ــ يتكلم عن المشاكل والحلول بطمأنينة لأن الزلازل لم تحدث خسائر فى أرضه ، وهو محام ناجح وقلم يتألق فى الصحف ومثله عباس صديق المستقر فى وظيفته رغم أنه كان أشد اغتيالا منه لأموال الناس . ولكن لم يكن الحسد ولا الحنق ولا الغضب ليؤثر فى صداقتهم الوطيدة وزمالتهم السياسية القديمة ، وتناول سمير عبد الباقى كبشة فول سودانى من طبق صغير ممتلئ وقال :

ــ كلام جميل ، ولكن ها هى الأيام تمضى دون أن نجد حلا حقيقيا !

ونظر عيسى إلى الرذاذ المتساقط فى الخارج من زجاج النافذة وتساءل :

ــ وهل نبدأ من أول الطريق على الآلة الكاتبة ؟

وراح عباس صديق يقرقر فى النارجيلة وينفث الدخان كعضو فى أوركسترا المدخنين بالقهوة والدخان ينعقد حول المصابيح المدلاة كالضباب وتأمل عيسى الوجوه المتباينة التعابير على طول القهوة ، المتراوحة بين الخمول عند الحالمين ، والتركيز المحموم لدى اللاعبين ، وتساءل فى جزع لماذا قدر عليه أن يحارب التاريخ فى موكبه المتدفق منذ الأزل ؟! وتطلع من زجاج النافذة إلى الطريق السابح فى المطر والضوء بنهم جنسى يفتش عن امرأة مهرولة بمدخل عمارة

مظلم ، وقال :

ــ الشتاء جميل ولكن القاهرة غير مستعدة له .

فقال إبراهيم خيرت مخاطبا سمير عبد الباقى :

ــ لا تنس أن رجالنا منتشرون فى مجالس إدارات الشركات .

ها هو يتكلم عنهم فيقول « رجالنا » ويحمل فى نفس الوقت بقلمه على الأحزاب والحزبية ويطالب بمحو الماضى محوا . ما أكثر القرف الذى يدعو إلى التقزز . وهو نفسه عنصر هام من عناصر القرف . والاستثناء المثير للحيرة حقا هو ماضيه ــ وماضيهم ــ المضىء بالإيثار وشرف النفس ! وسأله :

ــ خبرنى عن شعورك وأنت تقرأ مقالاتك فى الصحف ؟!

فقال إبراهيم خيرت فى رزانة غير عابئ بابتسام الآخرين :

ــ أنا أتساءل لِمَ أراد الله لآدم أن يهبط إلى الأرض ؟!

ورفع عباس صديق وجهه عن خرطوم النارجيلة وهو يجلس على كرسيه ربعة بدينا فاقع بياض الوجه جاحظ العينين براقهما لحد المرض أصلع يوحى منظره جملة بأنه أكبر من عمره بعشرة أعوام على الأقل ، وقال :

ــ سوف نشقى حتى نراكما فى وظيفتين كبيرتين بشركة محترمة ..

وراح عيسى يحاول النفاذ إلى بواطن الآدميين المتكتلين فى القهوة لغير ما سبب واضح . وجرى فى الماضى ملايين السنين بين الدهشة والارتياع . ثم التفت نحو زجاج النافذة فرأى شحاذا واقفا وراءه ليرمقهم بنظرة مستعطفة وقد انقطع المطر فقال لأصحابه :

ــ تصوروا أن هؤلاء الآدميين انحدروا فى الأصل من السمك !

ــ لكن الأسماك ما زالت تزحم المحيطات بملايين الملايين ..؟

فقال بفتور :

ــ وهذا هو سر مأساتنا الحقيقى ..

وطرد الشحاذ بإشارة من يده وعاد يقول :

ــ يعزينى أحيانا أن أرى نفسى كالمسيح أحمل خطايا أمة من الخاطئين ؟

فسأله عباس صديق :

ــ هل أنت متأكد من معلوماتك التاريخية ؟

فقال لنفسه إنه تأكد منها ساعة أغلقت التليفون فى وجهه . وقال إبراهيم خيرت بتحريض :

ــ الليلة مناسبة جدا لشىء من البراندى ..

وشرب سمير عبد الباقى قليلا من الماء ليرطب فاه الذى جف بطحن الفول السودانى وقال :

ــ حتى على فرض أننا أخطأنا ألم يجدوا فى ماضينا ما يشفع لنا ؟!

وأغمض عيسى عينيه ليرى الماضى . فترة حية من نبض القلب . هدير المجد يخلد فى الأسماع . وهراوات الجنود كالصواريخ ،والحماس المهلك للأنفس . ثم الإغراء الموهن للهمم . وزحف الفتور كالمرض . ثم الزلزال دون نذير كلب . ونشدان العزاء عند قلب أجوف ، ثم صرير التليفون كصوت العدم .

وقال سمير عبد الباقى أيضا :

ــ كنا طليعة ثورة فأصبحنا حطام ثورة !

فقال إبراهيم خيرت باهتمام وكأنما يبرر موقفه بصفة عامة :

ــ أقول إنه علينا أن نلحق بالركب ...

فتجلت نظرة حزينة فى عينى سمير عبد الباقى الخضراوين وقال :

ــ قضى علينا بأن نموت مرتين ..

فأيد عيسى رأيه قائلا :

ــ هذا هو الواقع ولذلك فنحن نتغذى بالسمك !

ورأوا ماسح الأحذية يدق صندوقه حيالهم فاختبأوا فى الصمت حتى ذهب . وضحك سمير عبد الباقى ضحكة عالية استدعت تساؤلهم فقال :

ــ أذكر أننى أوشكت يوما أن أدخل المدرسة الحربية !

فضحكوا معا حتى قال إبراهيم خيرت :

ــ ما رأيكم فى أننى أتفاءل عند اشتداد الظلمات ؟!

فقال عيسى لنفسه ليس المعزى كالثاكل . وغادر القهوة حوالى العاشرة مساء وهو يحبك المعطف حول جسمه . ونظر إلى السماء فرأى آلاف النجوم وهى تومض . وتنشق فى الجو الصافى عبير الشتاء غب المطر . وعكست الأرض المغسولة لونا سنجابيا لامعا ، غير أن هواء باردا لفح وجهه فى هبات متقطعة منعشة كالدعابات القاسية ، وعاوده الإحساس بالغرابة فمضى يطمئن نفسه بمرتب العامين الكامل ورصيده فى البنك المحصل من العمد .

وفى جروبى جلس إلى عبد الحليم باشا شكرى والشيخ عبد الستار السلهوبى الذى كان يهمس بآخر نكتة . وسألاه عن الأخبار بطريقة آلية ، وانتظر أن يفاتحه الباشا بنتيجة مسعاه فى إيجاد عمل له ولكن الشيخ السلهوبى سأله متهكما :

ــ ألا تزال فرحا بإلغاء المعاهدة ؟

فأدرك أن الشيخ قد أصيب حقا بعقدة المعاهدة الملغاة التى يرجع إليها فى جميع الأرزاء التى نزلت بهم ، وقال عبد الحليم شكرى :

ــ الأحداث تنقض على زملائنا كالصواعق !

ثم تساءل فى قلق :

ــ هل يجىء دورنا ؟!

وراح عيسى يحتسى الشاى وهو يرمق الوجوه الرائقة بحسن التغذية ، وإذا بعبد الحليم شكرى يميل نحوه قائلا :

ــ كل آت قريب !

فاشتعل باطنه بالغضب وقال لنفسه : ما من أحد منهم إلا وقد قصده قديما فى خدمة قضيت فما بالهم يتنكرون له ؟!

وندت عن حسناء ضحكة بارعة كلحن جنسى وهو يغادر المحل . وفى

الطريق دهمته الآلام التى هصرته حال إغلاق التليفون فى وجهه فكاد رغم البرد ينصهر . وهو الذى أحبها دون أن تثبت جدارتها بحبه لحظة واحدة . كلاهما قبل صاحبه أول الأمر لمزايا تهمه لا علاقة لها بالحب ولكنه أحبها بعد ذلك بصدق ، أما هى فما أسرع أن أغلقت التليفون . ولعله من حسن الحظ أنه تلقى ضربة القلب وهو فريسة لضربة السياسة فلم تستأثر به وحدها . وجعل ضيقه بكل شىء يستفحل حتى لم يترك فى النفس متسعا لأى قيمة . كيف توهم نفسك بأنك تريد عملا كما توهم الآخرين ؟!. العمل هو آخر ما تريد . فليعلم ذلك جميع السكارى . وابغ قبل ذلك عشرات الحماقات . واستمتع بنقاهة أطول من الموت . وليكن ما يكون .

١١

وجاء حسن ابن عمه لزيارته . وقال عيسى إن الذى تقبل عليه الدنيا لا يزور أحدا أدبرت عنه فلماذا جاء ؟، وتذكر عمه فثار باطنه وتوثب للتحدى ، غير أنه استقبله بترحاب كلفه جهدا جهيدا . ومذ جمعهما المركز شعر برغبة فى الاختفاء كمجرم ولكنه أطلق من ذاته المكدودة مرحا مسرحيا .. وتبدت حيوية حسن فى أوجها وجرت فى ملامحه البارزة الحسنة دماء الثقة والنجاح . لم يعد الناقد الحاقد المغلوب على أمره وعما قليل سيجود بمكارم عطفه !. وثمة شعور باطنى أثار اهتمام الأم بالزيارة فكفت عن غمغمة التسبيح لتسمع كل كلمة تقال . وسأل حسن ــ وهو يتمطق أثر حسوة شاى ــ عن الحال ، فأجاب عيسى بضحكة ولم يقل شيئا فعاد الآخر يسأل مرة أخرى فقال :

ــ ألا ترى أنى أعيش كالأعيان ؟

فقال بجد :

ــ آن لك أن تعمل ..

ورمشت الأم فى أمل وأمنت على قوله بحرارة فاغتاظ عيسى من اندفاعها وتساءل فى ارتياب عن سر الزيارة وأقسم ألا يقبل الزواج من بنت عمه ولو مات جوعا ، ثم قال بثقة زائفة :

ــ لو أردت العمل لوجدته ..

فسأله الآخر برزانة أخوية :

ــ ولِمَ لم ترده ؟

ــ لأنى أريد راحة طويلة ، زهاء عامين أو أكثر !

ــ أنت تمزح بلا شك ؟

ــ بل لا أجد داعيا للعجلة ..

ثم بامتعاض شديد :

ــ وبخاصة وأن الخطبة قد فسخت ..

فنظر حسن إلى الشجرة الجامدة وراء زجاج النافذة ليتجنب عينى صاحبه ولم ينبس فسأله عيسى باهتمام :

ــ هل علمتَ بالخبر ؟

فقال بلهجة دلت على أنه يخوض الحديث مكرها :

ــ نعم فى مقابلة عابرة مع على بك ..

ثم مستدركا بلهجة انتقادية :

ــ موقف يدعو إلى الأسف الشديد !

فقال عيسى بحدة :

ــ لقد أعطيته درسا لا ينسى ..!

ــ استنتجت هذا فى اللقاء العابر رغم أنه لم يشر إليه بكلمة ، ولكن دعنا من ذلك فلعل الخير فيما اختار الله ..

ثم حدجه بنظرة ودية وقال :

ــ ثمة مكان لك فى شركة محترمة !.

فأعرب عن تساؤله بتقطيبة طارئة فقال حسن :

ــ شركة جديدة للإنتاج والتوزيع السينمائى ، وقد اخترت أنا نائبا للمدير ، ولكننا فى حاجة إلى مدير حسابات كفء ..

وهتفت الأم :

ــ فيك الخير كل الخير يا حسن ..

وقال عيسى لنفسه : وضحت الصورة ، موظف تحت رياسته وزوج لأخته ودون ذلك فليأت الموت إذا شاء . وقال بوضوح :

ــ إنى أهنئك وأشكرك ..

ثم وهو يبتسم كالآسف :

ــ ولكنى أعتذر ..

فارتسمت الخيبة فى الوجه الفياض بالحيوية وتساءل :

ــ ألا تفكر فى الأمر ؟

ــ أكرر الشكر والاعتذار ..

وردد بصره بينه وبين الأم الذاهلة وقال :

ــ إنها وظيفة محترمة جدا ..

ــ بدليل أنك اخترتها لى ولكننى مصمم على القيام بإجازة طويلة ..

فتريث قليلا ثم قال :

ــ ليست مجرد وظيفة ولكنها فى الوقت نفسه فرصة للاندماج فى الحياة الجديدة إذ أن الغرض من تكوين الشركة هو خدمة أغراض الدولة !.

فقال بتصميم :

ــ الراحة الآن أهم من أى غرض فى الحياة ..

من موظف صغير إلى نائب مدير شركة !. واشتد جنون رغبته فى الإضراب عن العمل ، وتوطد نزوعه نحو تدمير نفسه . ووقف حيال محاولات الآخر بكل عناد حتى اضطر هذا إلى أن ينصرف دون نتيجة . مخلفا فى نفس عيسى مسرة عمياء وإحساسا وهميا بالانتصار .

وتأوهت الأم قائلة :

ــ أنا لا أفهم شيئا ..

فقال ساخرا :

ــ ولا أنا ..

فقالت بمرارة :

ــ أنت لا تحب ابن عمك ..

ــ ولا هو يحبنى !



ثم حدجه بنظرة ودية وقال :

ــ ثمة مكان لك فى شركة محترمة ..

ــ لكنه فى الوقت المناسب لم ينس أصله !

ــ لا لوجه الله .

فقالت بإصرار :

ــ ولو ، بنت عمك خير من سلوى ، هل نسيت ؟!، ليتك تفكر فى الأمر .

فقال بغموض وبصره معلق بالسحب المتراصة فى الأفق من خلال أغصان الشجرة :

ــ إنى أفكر حقا فى هجر القاهرة ...

١٢

وصارع التردد أشهرا . ويوما قال لأمه :

ــ إنى أفكر حقا فى السفر إلى الإسكندرية ..

وكانت الأم تزداد اعتيادا لغرابة أطواره كما تزداد ذبولا ونحولا ، فقالت بهدوء :

ــ ولكن الصيف انتهى ..

ــ أريد الإقامة لا التصييف ..

فاختلج جفناها قلقا فاستطرد قائلا :

ــ أعنى لفترة من الزمن .. أود أن أقيم فى مكان لا يعرفنى فيه أحد ولا أعرف فيه أحدا .

فقالت فى امتعاض شديد :

ــ حالك لا يعجبنى ، والإنسان يجب أن يواجه الصعوبات بصورة أخرى ، وما زالت أمامك فرصة لم تضع عند ابن عمك ..

وعندما وجدت منه إصرارا استعانت بأخواته الثلاث فسارعن إلى الدقى . وهن جميعا متزوجات ويحملن فى وجوههن طابع الأسرة الممثل فى هيئة الوجه المثلثة والأعين المستديرة وجميعهن يكنن لعيسى حبا صادقا لا لأنه كان شخصية لامعة يعتززن بها فحسب ولكن أيضا لأنه صاحب الفضل الأول على أزواجهن فى العلاوات والترقيات على عهد نفوذه . وأجمعن على المعارضة فى سفره كما أجمعن على وجوب الموافقة على اقتراح ابن عمه .

ــ ما معنى أن تقيم فى بلد كالغريب ؟

ــ ألا يكفى أن أجد فى ذلك راحة ؟

ــ ومستقبلك ؟

فقال بحدة :

ــ مستقبلى أصبح ماضيا !

ــ بل أمامك فرصة لاستعادة كل ما فقدته !

ورفع يده يدعوهن إلى الكف بحركة حاسمة ، ثم قال بهدوء :

ــ لا جدوى من هذا الكلام المعاد ، المهم والجديد هو أننى قررت الانتقال من هذا المسكن !

وبهتت الأم حزنا فقال كالمعتذر :

ــ لم يعد من الحكمة أن أتحمل نفقاته الباهظة ..

ــ ألهذا علاقة برغبتك فى السفر ؟

فقال متجهما :

ــ كلا ، إنى أعتبر السفر علاجا ضروريا ..

فقالت الأم فى توسل :

ــ لا تشمت أعداءك بك ، يمكنك ولا شك الاحتفاظ بمسكنك الجميل وكل مظاهر حياتك إذا أنت وافقت على ما عرضه عليك ابن عمك ..

فأغمض جفنيه دون كلام رافضا الاستمرار فى مناقشة عقيمة فقالت الأم بمرارة :

ــ أنت ابنى وأنا أعرفك ، أنت عنيدٌ جدا ، ودائما كنت عنيدا ، أنت تختار الكبرياء ولو كلفك الكثير ، ولم تكن تجد بعنادك عندنا إلا المحبة والتسامح ولكن الدنيا ليست أمك ولا أخواتك !

فقال بإصرار وهو يهز منكبيه استهانة :

ــ سأفترض أننى لم أسمع شيئا ..

فقالت بمزيد من التوسل :

ــ يجب أن تمتثل أمر ربنا ــ الملك ملكه يفعل به ما يشاء ، والمستقبل بيده ،

وتستطيع أن تكون سعيدا دون أن تكون وكيل وزارة أو وزيرا ..

حول عينيه إلى أخواته متسائلا :

ــ أين يحسن أن تقيم الوالدة حتى أرجع ؟

وعدلن عن المناقشة ، واقترحت كل واحدة منهن أن تقيم الأم عندها ، ولكن الأم قالت :

ــ سأرجع إلى البيت القديم بالوايلية .

وهتفت وهيبة وهى أبرهن بأمها :

ــ لن تقيمى وحدك أبدا ..

ــ أم شلبى لن تفارقنى وآمل ألا تنقطعن عن زيارتى ..

وتذكر عيسى البيت القديم الذى شهد مولدهم جميعا . وبخاصة حوشه الواسع وأرضه الرملية القاحلة . ولم يدر كيف يعرب عن استيائه ولكنه سأل أمه :

ــ أليس الأوفق أن تقيمى عند إحدى أخواتى ؟

فقالت بعصبية :

ــ كلا . أنا أيضا عنيدة ، ومن خير الجميع أن أعيش فى البيت القديم .

وأكدت كل أخت من بناتها أنها ستسعد بإقامتها عندها ولكنها لم تباهن . وامتلأ إحساس عيسى بالمسكن الجميل الذى قال فيه كلمته الأخيرة . ونظر إلى الأشجار خارج الشرفة وهى تهتز فى رقة بالغة فى إطار من جو الخريف الأبيض الموحى بالشجن وقال لنفسه « ألا لعنة الله على التاريخ » .

وإذا بوهيبة تقول :

ــ البيت القديم غير صالح للسكنى لمن اعتاد الإقامة هنا !

وخيل إلى عيسى وهو يرى خلجات جفنى أمه وشفتيها أنها ستبكى ولكنها قالت بصوت متهدج :

ــ هو صالح تماما وفيه ولدنا جميعا ..

١٣

جميع ما يحيط بنا يعد براحة كالموت . ومن أضناه الألم خليق بأن يرحب بالمسكن وإن يكن سما . وهذه الشقة الصغيرة المفروشة دليل على أن الحضارة لا تخلو أحيانا من نقطة رحمة . وها هو البحر يترامى فى عظمة كونية حتى يغوص فى الأفق ولكنه يستمد من حلم أكتوبر حكمة ودماثة . وجدران الحجرات محلاة بصورة الأسرة اليونانية صاحبة الشقة وكلما نظرت إلى الخارج رأيت الوجوه اليونانية فى الشرفات والنوافذ وعلى قاوعة الطريق ، غريبا فى موطن غرباء ، وتلك مزية الإبراهيمية ، والمقهى المرصع طواره بالأشجار وسوق الخضار بألوانه النضرة والحوانيت الأنيقة تحفل بالوجوه اليونانية وتتردد فى جنباتها ــ بعد زوال الموسم ــ لغتهم الأجنبية فخيل إليك أنك هاجرت حقا وتنهل من الغربة حتى تسكر . وهؤلاء الأجانب الذين طالما أسأت بهم الظن أنت اليوم تحبهم أكثر من مواطنيك وتلتمس عندهم العزاء ، إذ أن جميعكم غرباء فى بلد غريب . واختيار شقة فى الدور الثامن دليل آخر على الرغبة فى الإمعان فى السفر . وعن بعد ترى البحر من فوق قطاعات متلاحقة من الأبنية المنخفضة تمتد حتى الكورنيش . ترى البحر وقد سحره أكتوبر فأخلد إلى أحلام اليقظة وترى أيضا أسراب السمان تتهاوى إلى مصير محتوم عقب رحلة شاقة مليئة بالبطولة الخيالية . القاهرة الآن ذكرى مغلفة بالحزن . والوحدة تجربة مرة ولكنها ضرورية لتجنب النظر إلى الوجوه المثيرة للقلق والأرق .. ومعالم المجد المحرضة على الحسرة . جرب الوحدة ورفقاء الوحدة ــ الراديو والكتاب والأحلام ــ وانظر هل يمكن أن تنسى لغة الكلام ؟. وتتتابع اللحظات بلا ضابط يضبطها فأنت لا تعرف الوقت ولا تكاد تعرف اليوم ولذلك ترفع بصرك فى

دهشة نحو قرص الشمس الماسى الهادئ كما يبدو خلف سحب الخريف الصريحة . وها هى الحياة تغازلك رغم الكمد وكأنك ترى الدنيا والناس لأول مرة بعد أن أفقت من حمى العراك والمطامع . وقيمتها الذاتية تتكشف معلنة عن بهجة الإبداع ولم يكن مسير الشمس قبل ذلك إلا بشيرا بتقديم مذكرة أو نذيرا بمقابلة السفير .. وقد دفنتنا الأحداث ونحن أحياء وما هذه الآلام فى الحقيقة إلا أضغاث أحلام تحترق فى رأس ميت عفن ، أما فى هذه الشقة اليونانية فثمة وحدة حقيقية وقلب نابض . وركن البوديجا لا يسلى عنه القلب ولكن ما أقبح عواطفه المتناقضة فأنا أحبهما ــ عباس صديق وإبراهيم خيرت ــ وأبغضهما فى آن ، أحب جانبهما الذى عاش قبل الثورة وأكره وسائلهما التى عاشا بها بعد الثورة ، وعندى الآن فرصة لتصفية هذه العقد الصفراء ، والهموم كالجبال والعقل علاه الصدأ ولكن سبيل العزاء المحفوف بالحماقات ممهد أمام مالك الحرام وأحلام يقظتك التى ينتهى فيها العذاب بالانتصار . ونظرة من عل إلى هذا الخلاء الذى لا يحد تهب النفس راحة ورفعة فوق كل شىء . ولم يا ربى لا تلهمنا ومضة عن معنى هذه الرحلة الشاقة المخضبة بالدماء ؟ ولم لا ينطبق هذا البحر الذى شهد الصراع منذ الأبدية ؟! ولم تأكل هذه الأرض الأم أبناءها عند المساء ؟. وكيف يكون للحجر دور فى المسرحية ، وللحشرة دور ، وللمحكوم عليه فى الجبل دور ، وأنا لا دور لى ؟.

ومضى ذات صباح إلى جليم تلبية لرسالة تلقاها من سمير عبد الباقى ، لم يكن رآه منذ انتقاله إلى الإسكندرية فى منتصف سبتمبر ولم يكن رأى كازينو الفردوس منذ صيف ١٩٥١ : وكان الساحل خاليا والكازينو شبه خال كحاله فى الأيام الأخيرة من أكتوبر . على عهد النفوذ كان يذهب إلى الفردوس فى مجال من الخيلاء ترمقه الأعين باهتمام فيشق طريقه إلى مائدته المحجوزة بين أصدقاء وأعداء من الباشوات فى تلك الدنيا الزائلة . والحفل الذى أقيم فى الفردوس منذ عامين هل يمكن أن ينسى ؟. الصوت الملائكى والبهجة الشاملة والهتافات

المدوية ، ومجيئه هو فى ركاب الزفة ليشرب ويطرب ويسهر ولم يكن يرى على مدى الآفاق إلا آمالا واعدة بالفوز المبين .

وجلس بمجلسه القديم على يمين المدخل الجوانى بين مقاعد شاغرة . وعلى مائدة متفرقة بضعة من معمرى الباشوات الذين يستميتون فى التصييف حتى اللحظة الأخيرة ، وثمة امرأتان وحيدتان ، عجوز وأخرى فى منتصف العمر ، وأحاط بالمكان سكون رهيب . واسترق إلى العجوز نظرة وقال لنفسه إن سلوى ستلقى نفس المصير فى يوم من الأيام . كالمجد والعزة وشتى الآمال . وأعجب بانبساط الماء ودمائته وزرقته الصافية كما أعجب بالسحب الحبالى بماء الورد الأبيض . جاء سمير عبد الباقى فى ميعاده فتعانقا بحرارة . وبدا سمير ناحلا أكثر مما تركه ولكنه أحسن صحة وأصفى عينا . وقال :

— جئت أنا وزوجتى لتعود أمها وسنسافر غدا ..

فسأله عن ركن البوديجا فأجاب بأنه لا جديد ، ثم قال :

— أما أنا فبعت نصيبى فى بيت قديم وشاركت خالى وهو تاجر أثاث ، أنا فى الواقع مدير أعماله وحساباته وشريك صغير له ..

فهنأه عيسى ، وأخبره بأنه لا رغبة له فى العمل فى الآونة الحاضرة ، ونظر سمير فيما حوله فى دهشة ثم قال :

— انظر إلى الإسكندرية كم هى خيالية !

— الدنيا كلها خيالية ، ما هذا بيمينك ؟

فناوله كتابا قرأ على غلافه « الرسالة القشيرية » ثم حدجه بنظرة متسائلة فقال سمير :

— ألم تسمع عن التصوف ؟

فضحك ضحكة مختزلة وقال :

— لم أعرف فيك اهتماما به من قبل !

— هذا صحيح ولكننى سمعت أحمد باشا زهران وهو يتحدث عنه بجدية

حقيقية ، وقد أهدانى فى مناسبات مختلفة بعض الكتب عن الموضوع فوجدتنى أبحث عنها فى الأيام الأخيرة ..

وقال عيسى ووجهه لم يتخلص بعد من ذيول ضحكته :

— وهل أنت جاد فيه أو المسألة مجرد تسلية ؟!

فقال وهو يفرغ زجاجة الكوكاكولا فى الكوب :

— أكثر من تسلية ، فيه راحة حقيقية للقلب .

ثم بعد شربة أتت على نصف الكوب :

— وكونك لا تبحث عنه إلا تحت ضغط ظروف معينة لا يجحد فضله فقد لا نذهب إلى أسوان شتاء إلا لمعالجة مرض ولكن هذا لا يطعن فى فائدة أسوان للمريض والصحيح على السواء ..

فقال عيسى ساخرا :

— ولكن يوجد ولا شك فارق بين أن نتصوف حيال أزمة سياسية وبين أن نتصوف لوجه الله والدنيا مقبلة علينا .

فابتسم سمير فى صبر وتجلت شفافية عينيه الخضراوين أصفى من السحب الناصعة البياض وقال :

— نعم ثمة فارق ولكن العبرة بالنتيجة ، وأحيانا تدهمنا كارثة لتهدينا سواء السبيل !

— ولكن هب الدنيا ..

وانقطع عن الحديث فجأة — كأنه عثر فى الصمت — بسبب نظرة طويلة تبودلت بينه وبين المرأة النصف المصاحبة للعجوز ، ثم رجع إلى صاحبه وقال لنفسه : لو سارت الأمور كما يشتهى لكانت سلوى زوجة له منذ عام على الأقل . لو ؟!. وسأل سمير :

— ما رأى التصوف فى حرف « لو » ؟!

ولم يدرك سمير مرماه فأجاب هو :

ــ لو حرف لوعة يطمح بحماقة إلى توهم القدرة على تغيير التاريخ .

فقال سمير ببساطة :

ــ من هذه الناحية فهو إنكار لإرادة الله المتجلية فى التاريخ من شأنه أن يضفى عليه عبثا ولا معقولية ..

سلوى لم تتزحزح من قلبك . رغم احتقارك لشخصيتها . وقد يقرر العقل مواصفات للمرأة المثالية ولكن الحب فى صميمه سلوك لا معقول . كالموت وكالقدر وكالحظ . وما أشبه سلوى بالدنيا فى المعاملة ، ولكنك ستظل فى حاجة إلى امرأة فهى مسكن طيب للآلام يفوق التصوف على الأرجح . وتذكر السؤال الذى قطعه فقال بنغمة اعتذار :

ــ هب الدنيا وعدتنا مرة أخرى بالوزارة فماذا تصنع بالتصوف ؟

فضحك سمير حتى لمعت أسنانه النضيدة وقال :

ــ غير مستعص أن أمارس الاثنين معا ، هكذا فعل أحمد باشا زهران أكثر من مرة ، وها أنا أجمع بين التصوف والتجارة ، وهو لا يخمد النشاط ولكنه ينقيه من الشوائب ..!

فقال عيسى بحزن :

ــ وهو على أى حال خير من الانتحار !

وأشرقت الشمس مقدار ثوان ثم توارت . وسأله سمير عما ينوى أن يفعل فسأله بدوره :

ــ هل انتهينا حقا ؟

فهز رأسه فى حيرة قائلا :

ــ هو الأرجح فليس الأمر كالانقلابات الماضية ..

فسكت عيسى مليا كأنما يصغى إلى الصمت الشامل ثم قال :

ــ ما أشبهنا بساحل الإسكندرية فى الخريف !

ــ لذلك أقول لك إنه لا بد أن نعمل ..

ــ ومع أى عمل سنتخذه سنظل بلا عمل ، لأننا بلا دور ، وهذا سر إحساسنا بالنفى ، كالزائدة الدودية ..

ثم وهو يبتسم :

ــ ولا أخفى عليك أن لى تصوفى الذى يشاغلنى فى الوحدة .

فتطلع إليه باهتمام فقال الآخر ببساطة :

ــ إنى أفكر فى احتراف الجريمة ..

فضحك سمير طويلا ثم قال :

ــ يا له من تصوف بديع !

ــ غير أنك لا تقتل فيه جسدك أنت ولكن أجساد الآخرين .

وضحكا معا حتى قال سمير :

ــ نحمد الله فلا زالت لدينا القدرة على الضحك ..

ــ وسنزداد ضحكا كلما رأينا التاريخ وهو يصنع لنا دون أن نشارك فيه كأننا الأغوات ..

وهبت نسمة لطيفة ، وبدا الباشوات كالنيام ولغير ما سبب تذكر أول خطبة له فى بيت الأمة وهو طالب بالجامعة . قال بأسى :

ــ تاريخنا نفسه مهدد بالإبادة ..

ــ التاريخ واسع الصدر ، وسيدافع عن نفسه بعد انقراض المتخاصمين جميعا ..

ومر بهما مدير المحل الرومى فابتسم إلى عيسى وسأله عن الصحة وعن الحال فأدرك من توه المغزى السياسى لسؤاله وقال باسما :

ــ هى كما ترى ..

وعندما رجع إلى عمارته شاهقة الارتفاع القريبة من محطة الترام كان يجتر حزنا على فراق سمير . ولعن وهو يخوض عتمة المدخل الطويل سلوى . وقال لنفسه وهو يدخل إلى المصعد : « ما أحوجنى إلى مسكن » .



... وحده مع كأسه ..

١٤

وحده مع كأسه فى الطرقة الشاحبة الضوء التى تصل بين معرض الحلوى فى الخارج وصالة الرقص فى الداخل بالتريانون الصغير . وعشرات من الآلات العازفة تبعث بالأنغام الراقصة والأجساد المتعانقة تتراقص فى حركات خفيفة رشيقة تنفض بها عن ذواتها متاعب ضوء الشمس . وهؤلاء الحسان ينسبن إلى بيوت لا إلى الشوارع كما كان الحال قبل الحرب وفى أثنائها وقد أدرك هو جانبا من ذلك التاريخ على عهدى مراهقته وشبابه . أما النسوة فقد أثرين فى زمان الحرب وترفعن عن العرض الرخيص فاختفين من الميدان ، وقال عيسى لنفسه « الميدان خال اليوم لمن يروم عملا سهلا مريحا من منبوذى السياسة ! » . وهزته نغمة فتاق إلى الرقص الذى يجيده بدرجة لا بأس بها ولكن أين الحسناء ؟. ونهل من الكونياك الذى يحبه باعتدال ، وشعر بأنه فى مخبأ فازداد طمأنينة وقال إن مدخره من مال العمد سيمده بالضرورى لارتكاب الحماقات الفاتنة ، وقال أيضا إنه لولا إحساسنا المرضى بالمستقبل لما أزعجنا شىء !. ولكنه لم ينعم بوحدته فى المخبأ طويلا إذ ما لبث أن اقتحمه صوت مباغت قائلا :

ــ ما رأيك فى الدنيا ؟

ارتعد لوقع المباغتة وأجال عينيه فى الطرقة المقوسة فلم ير أثرا لإنسان . الصوت صوت كهل مخمور يغلى فى درجة الهذيان ولكن أين هو ؟!. وإذا بالصوت يقول ضاحكا :

ــ هل جربت الشرب فى الظلام ؟

ثمة شجرة متوسطة ــ طبيعية أو صناعية ــ فى أصيص ضخم عند نهاية قوس الطرقة المفضى إلى محل الحلوى ، وكان المحل فيما يلى الشجرة غارقا فى الظلمة إذ

يغلق أبوابه حوالى الثامنة مساء . واستنتج أن الرجل كان يجلس فى الطرقة ، ولسبب ما تزحزح بمقعده إلى الظلام حيث يمارس مزاحه السخيف . وأهمله وهو يلعنه فى سره ولكن الآخر عاد يسأل دون أن يظهر فى منطقة الضوء الخافت :

ـ هل جربت الشرب فى الظلام ؟

فتجنب محادثته لعله يسكت ولكنه قال :

ـ الشرب فى الظلام يهبك قدرة على التركيز وهذا هو السبب فى أننى أفكر فى حال الدنيا ، فهل هى سائرة حقا إلى الخراب ؟

راح يشاهد الرقص ـ ولو بنصف انتباه ـ ويعجب بالوجوه والصدور والبشرات الوردية ، ولكن السكران لم يعتقه فقال :

ـ السؤال يهمنى حقا ، فإذا كانت سائرة إلى الخراب فأنا أشرب الكونياك أما إن كان ثمة أمل فى النجاة فإنى أفضل الويسكى . وإن أكن فى الحالتين أهلك نفسى لأنى مصاب بثلاثة أمراض جليلة الشأن ، ألا وهى الضغط والكبد والبواسير .

وعلى رغمه ابتسم . النشوة حلوة على أى حال . أما ما انقض على رءوس رجالنا من محن فأمر محزن حتى الموت . وكأنك تتلقى على يافوخك أنقاض العالم القديم الذى يتقوض . والأدهى من كل شىء أنك وإن كرهت العهد الجديد بقلبك فإنك لا تستطيع أن ترفضه بعقلك . لا أنت ولا مدخرك من مال العمد !.

ـ وليس الخراب بالشىء الجديد على العالم فإن يكن مكتوبا على الجبين فمن الخير أن يعجل ..

فسأله وهو لا يدرى تقريبا :

ـ ولم تريده على أن يعجل ؟

فضحك ضحكة مقرقرة وقال :

ـ لأن خير البر عاجله ...

ورثى عيسى إلى ضحايا التاريخ من قلب متأوه ، وأفرغ الثمالة ثم غادر المحل . وسار على مهل فى شارع سعد زغلول ، أحب شوارع الإسكندرية إلى نفسه وبخاصة بعد الثورة ، إنه شارعه الخاص على وجه ما ، ويحب كثيرا أن يقطعه ولو مرة كل يوم جيئة وذهابا ، ليناجى فيض الذكريات . واقترب الوقت من نصف الليل وشاعت فى الجو برودة رقيقة منعشة وبدا المجال كله ملفعا بالهجران . وألقى نظرة إلى ظهر التمثال المحدق فى البحر وطوح برأسه إلى الوراء على طريقة الباشا الذى حلا له قديما محاكاته . واستقل الترام إلى الإبراهيمية ثم ذهب إلى الكورنيش ليسلى أعصابه بالمشى الوئيد . وفاقت ملاحة الجو خيال رأسه الدائر بالشراب ، وومضت النجوم فى الثغرات الواسعة بين السحاب ، واستكان البحر كالنائم تحت الظلام . وعلى البعد امتد سياج من الأضواء الثابتة فوق مراكب الصيد ، وخلا الطريق من الأحياء فعادت تلح صورة الهجران . وجلس على أريكة حجرية ينعم بالصمت والحنان . إنه لا يعود إلى مسكنه الخالى حتى يقنعه النعاس . ومنذ قدومه إلى الإسكندرية وهو يعيش غير خاضع لإنسان أو لعادة ولكنه يطيع مطالب شخصه الطبيعية فى حرية مطلقة ، فينام إذا حل سلطان النوم ويستيقظ إذا مل الرقاد ، ويأكل عند الجوع ويخرج لدى الملل ، هذه الحرية التى لم ينعم بها من قبل . وشعر بشىء يلفت رأسه إلى اليسار . كان إغراء يراسل حاسة أو أكثر من حواسه . رأى شبحا يتجه من بعيد نحو مجلسه ، وعندما اقتربت من ضوء المصباح العملاق وضحت معالمه ، فتاة من بنات الليل . الفستان الكسور الرخيص والنظرة المقتحمة بلا أدنى تحفظ أو كبرياء والانفراد المريب بالليل كل أولئك يقطع بأنها من بنات الكورنيش . وتفحصها وهى تمر أمامه فى الممشى الضيق الفاصل بين الأريكة وسور الكورنيش فوضح له شبابها ووسامة لا بأس بها فى عارضها وابتذال نظراتها وجو التأهب لتلبية الإشارة الذى يغلفها كأنها كلب مهجور يلتمس عابرا ليتبعه . سارت حتى بلغت

الأريكة التالية ثم جلست عليها مسددة الوجه ناحيته . أتعس بنات الهوى درجة ولكن ما أشد انطواء الإسكندرية على نفسها فى غير أيام المصيف حتى لتبدو مغلقة الأبواب فى وجه الغريب . وانبعث من أعماقه تأفف ولكن فى نبضة رغبة جنونية . من المحقق أن الأستاذ مدير مكتب الوزير المتطلع إلى الوزارة قد مات ولم يبق فى هذه اللحظة إلا ثمل منغرز فى الوحدة والظلام تزحف غرائزه فى الظلام كالحشرات الليلية وكأن دفعة قوية نحو التمرغ فى التراب تنفخ فى محركاته ، ولوح لها بذراعه كأقصى ما يمكن أن يجود فى مغازلتها ، ولوح مرة أخرى فقامت من مجلسها وجعلت تقترب منه حتى توقفت على بعد ذراع فأشار لها بالجلوس فجلست وهى تضحك ضحكة خافتة جدا كخرير الموج الهامس أسفل الكورنيش . تفرس فى وجهها فهالته طفولتها وسألها فى دهشة :

ــ كم عمرك ؟

فضحكت ولم تجب فأعاد السؤال باهتمام فقالت :

ــ خمن .

ــ لعلك فى الخامسة عشرة !

قالت فى مباهاة :

ــ لا ، لست قاصرة على أى حال فاطمئن ..

مائلة للبياض مستديرة الوجه ممتلئة الوجنتين ذات جسم صغير ممتلئ مقصوصة الشعر كغلام ، ولم تكف عن العبث بأظافرها التى بهتت صبغتها :

ــ من أين أنت آتية فى هذه الساعة ؟

فأشارت إلى الوراء بميل قائلة :

ــ من القهوة .

لاحت القهوة لعينه بابا مضاء يكتنفه الظلام والصمت فقال :

ــ لم أرها فى سيرى !

ــ يراها عادة من يقصدها .

ثم وهى تضحك :

ــ سيجارة ؟

وأشعلا سيجارتين ، ولم يجد شيئا يقوله فهمس :

ــ بنا ..

وسارا جنبا إلى جنب فى الطريق المتفرع عن الكورنيش وتأبطت ذراعه فعبس فى الظلام . وتذكر سلوى فاستفحلت عبوسته ، وقال لنفسه « فليحتكموا إلى انتخابات حرة إن كانوا صادقين ! » .

١٥

استيقظ حوالى الظهر فنظر إلى النائمة إلى جانبه باستغراب ثم سرعان ما أطبقت عليه ذكريات الليلة الماضية ، وقال إنه ما دام هنالك نسيان وعادة فكل شيء ممكن . وتفحصها وهى شبه عارية بنظرة باردة وقلب خامد وازدراء لكل شيء . شفتاها ممتلئتان ومنفرجتان عن أسنان دقيقة مرسومة بعناية . وقد مال رأسها إلى كتفها الأيمن وفضح النوم حقيقة شعرها فبرز جفافه وخشونته وتمرده . ومن التناقض الغريب حقا أن جمع كائنها بين أهداب مسترسلة فاتنة وبين كعبين متشققين كضفدعتين ، وتزحزح إلى الأرض ثم ذهب إلى الحمام ولدى عودته وجدها جالسة فى الفراش وهى تتثاءب ثم رفعت إليه عينين ثقيلتين جميلتين فعزم على أن يتخلص منها فى أقرب فرصة ، فقال :

ــ عندى ميعاد ويجب أن أذهب .

فحدجته بنظرة مترددة ثم غادرت الغرفة . وفتح باب الشرفة فتدفق هواء قوى ولكنه لطيف مشبع برائحة البحر ودفء الشمس الساطعة فى كبد السماء . وراح يرتدى ملابسه وهو يرنو إلى البحر الذى دبت فيه حركة مليئة بالاندفاع وانتشرت على مدى سطحه خطوط الرغاوى كأفواه ضاحكة . وطال الوقت وهى فى الحمام ــ كما ظن ــ فخرج إلى الصالة ليفتح الراديو فوجدها عاكفة على تنظيف البيت وترتيبه بهمة عالية ، فقال لها :

ــ أشكرك ولكن دعى هذا للبواب لأنه آن لى أذهب ..

فقالت ويداها لا تمسكان عن العمل :

ــ تفضل ..

ــ ولكن .. متى ترتدين ملابسك ؟

فجلست على مقعد كبير فى الصالة وابتسمت .

ــ أنت كسلانة ولكن عندى موعد !

فسألته برقة :

ــ أتقيم وحدك ؟

ــ نعم .. ولكن هيا بنا !

فراحت تمشط شعرها وتقول بحياء حقيقى لأول مرة :

ــ قلت لنفسى ربما كان فى حاجة إلى أنس وخدمة ..

فقال بدهشة :

ــ شكرا ، لست فى حاجة إلى شيء من هذا ، أليس لك بيت ؟

ــ كلا .

ــ أين كنت تعيشين ؟

فقالت بهوان :

ــ عند صاحبة القهوة أحيانا ، وأحيانا أبيت فى القهوة !

ــ لكنك تكسبين بلا شك ..

ــ لا نجد عملا فى الشتاء وكان الصيف الماضى كالشتاء !

فقال بضجر :

ــ على أى حال ستجدين حلا فى الخارج ..

فوقفت فى إذعان وقالت بصوت منخفض :

ــ لم أدخر شيئا للشتاء ، وأنت فى حاجة إلى خدمة !

وأتى إلحاحها بنتيجة عكسية فازداد عنادا ، غير أنه سألها :

ــ لِم لا تهاجرين شتاء إلى القاهرة ؟

فرمقته بنظرة دهشة كأن الفكرة ليست مما يخطر بالبال ببساطة :

ــ أنا من هنا ..

ــ أليس لك أهل ؟

ــ طبعا ولكن لا يمكن الرجوع إليهم !

ــ ألا تخشين أن يراك أحد منهم ؟

ــ هم فى طنطا ، أنا فى الأصل من طنطا ..

فقال فى ضجر وكأنما قد ندم على الاسترسال فى الحديث :

ــ من فضلك ، وقتى ضيق ..

ومضت إلى الحجرة لترتدى ملابسها . وقال لنفسه إن ثمة أوجه شبه تجمع بينه وبين هذه البنت فكلاهما ملوث وطريد . أما هى فقد تولاها حال عبث لدى يأسها من استعطافه فنظرت إلى صورة للأسرة اليونانية بالجدار وسألته :

ــ عائلة حضرتك ؟

فابتسم على رغمه وقال :

ــ أرأيت أنك شيطانة ؟!

فضحكت أكثر من المنتظر ثم سألته جادة :

ــ من الإسكندرية ؟

ــ كلا ..

ــ إذن فأنت موظف هنا ؟!

ــ تقريبا ..

ــ تقريبا ؟!

فهتف بها :

ــ أنت وكيلة نيابة .. هيا ..

وطلبت أجرتها فأعطاها وكانت دون ما قدر بكثير فرق لها لأول مرة منذ استيقاظه . وغادرا الشقة معا ثم افترقا عند مدخل العمارة . وقصد من توه مطعما ليشبع جوعه .

ودخل أول سينما صادفته ليمضى الفترة ما بين الثالثة والسادسة ، ثم جلس فى التريانون الكبير يشرب القهوة ويطالع جريدة المساء ، وحوالى التاسعة مضى إلى

مجلسه المعتم بطرقة التريانون الصغير . استمع إلى الموسيقى وتسلى بمشاهدة الراقصين وشرب من الكونياك حتى انتشى . وفى لحظة ما تمنى لو يرتفع صوت رجل الأمس من وراء الشجر ليسب الدنيا . وقال مخاطبا سمير عبد الباقى :

ــ أنا أيضا طالب تصوف لا أنت وحدك ..

وابتسم فى رثاء . ثم قال مخاطبا نفسه :

ــ لا تفكر فى المستقبل ..

ــ أجل أنت ما زلت فى شهر العسل ويلزمك فراغ طويل عريض .

ــ ولا تحزن لتفاهتك فهى تفاهة تاريخية ..

وقبيل منتصف الليل بقليل غادر المحل . وهو يقترب من مدخل العمارة رأى البنت جالسة فى القهوة اليونانية على أقرب كرسى من مدخل العمارة فحدق فى وجهها المبتسم فى ترحيب بدهشة . ونهضت بخفة لتلقاه أمام المدخل فتوقف فى حيرة فقالت فى مرح :

ــ لم تتأخر عن ميعادك !

وسبقته إلى الداخل فتردد لحظة ثم تبعها متسائلا :

ــ ماذا تفعلين ؟

فقالت وهى تتأبط ذراعه :

ــ كنت أنتظرك .. وقلت لنفسى سيكون من حسن حظى إذا جاء وحيدا ..

ورغم إدراكه القاسى للموقف ارتاح تملقها ، وفى المصعد سألها :

ــ ما اسمك ؟

ــ ريرى ..

ضاحكا :

ــ يبدو أنه اسم طنطاوى قح !

ــ هو كذلك فى الإسكندرية ..

ثم بعد صمت قصير :

ــ قلبى يحدثنى بأنك ستقبلنى فى ضيافتك ..

١٦

وسمح لها بالإقامة فى شقته كما تمنت . وأفهمها منذ اللحظة الأولى أنه رجل حر وأن عليها أن تلتزم حدودها حتى لو جاء كل ليلة بامرأة . وقالت له سمعا وطاعة . ولم ينكر بعد ذلك أنها أكسبت الشقة أنسا ونظافة وأطلقت فى جوها البارد أنفاسا حارة . وأنها تبدت فى الثياب الجديدة التى ابتاعها لها مقبولة حقا . وبالغت دائما فى العناية بمظهرها . ولعبت دورها بلباقة ، وهو دور فوق مرتبة الخادمة ودون مرتبة السيدة وتجنبت أن تثقل عليه بأية صورة من الصور . وكانت تشاركه الطعام والتدخين والشراب ولم تطالبه فوق ذلك بمليم . ولم يشجعها على التودد العاطفى إليه ولا على استعمال التعبيرات العذبة وقال لها :

ــ أنا رجل سيئ الظن بكل شىء ، هكذا أصبحت ، فاحذرى أن تذكرينى بالكذب .

وعندما استحكم الشتاء وأمسى الجو كالغيب لا أمان له اضطر إلى قضاء الليالى الطوال معها فى الشقة يستمعان إلى الراديو ، أو ينفرد هو بضع ساعات بالقراءة أو يريح النفس المكدودة بأحاديثها التافهة . وأسوأ ما يمر به معها أن تدهمه أحيانا كمركز للهوان الذى تدهور إليه فى الحياة وعند ذاك يتجنبها ويتوثب للإساءة إليها عند أول فرصة . وعند الإساءة ينقبض وجهها المستدير الممتلئ فيلحظ خفية الجهد الذى تبذله لشكم غضبها والتنفيس عن استعدادها العدوانى المكبوت المكتسب من حياة الأرصفة بمعركة باطنية تفتضح آثارها فى خديها وشفتيها ونظرتها وانقلاب سحنتها . ورغم أنها كانت أمية إلا أنها كانت على ثقافة فى عالمى السينما والراديو فهى تحفظ أسماء وصور النجوم والكواكب كما تعرف الأفلام والأغانى والبرامج ولا تشبع من أحاديثها . وسألته :

ــ ألا ترانى صالحة للسينما ؟

فأجابها بأنه لا خبرة له فى هذا الميدان . وعجب للغرور البشرى الذى يفوق قوة الذرة . وقصت قصصا عن نجوم وكواكب لا يدرى من أين جاءتها لتثبت له أنها جديرة بالأضواء وأن المسألة مسألة حظ لا أكثر ولا أقل !. وقال لها ضاحكا :

ــ كان ينبغى أن تبحثى عن شقة منتج أو مخرج لكى تشاركيه فيها !

ولأن ليل الشتاء طويل ، ولأنه يأبى أن ينام قبل الفجر . فقد علمته ألوانا من لعب الورق ، وقامرته كثيرا وربحت منه بعض النقود ، وهى النقود الوحيدة التى استقرت فى جيبها منه ، وخطر له أن يسأل نفسه مرة ماذا تعرف البنت عن السياسة ــ السياسة التى ازدردته بطلا ولفظته جثة ــ فسألها عن أسماء وأحداث ولكنها هزت منكبيها ولم تعن بالإجابة . وعجب كيف يوجد مخلوق لا اكتراث له بدنيا السياسة وسألها ساخرا :

ــ ماذا تعرفين عن الدستور ؟

فلم تبن عيناها عن أى فهم . فعاد يسأل :

ــ ورأيك فى الاستقلال ؟

فلم تتغير نظرتها فأوضح كلامه قائلا :

ــ أعنى خروج الإنجليز؟!

فهتفت :

ــ آه . فليخرجوا إذا شئت ، ولكنى سمعت الكثير عن أيامهم الحلوة . أبلتنى صاحبة القهوة فتحت قهوتها من نقودهم .

وقال لنفسه إن استقلالها الحقيقى هو أن تتحرر من الحاجة إلى أنا وأمثالى .

وفتحت له قلبها فحدثته عن ماضيها بصراحة غريبة :

ــ لى أم وخالة وأخوات ، والرجل الوحيد الباقى لى عم فى التسعين من عمره ، لذلك لا أتوقع الذبح .

وكانت شيطانة منذ الصغر . وقد مات أبوها وهى فى العاشرة فعجزت أمها عن تأديبها وتهذيبها ولم تستطع صدها عن الصبيان ، ولم يجد معها الزجر ولا الضرب .

ـ وعشقت شابا وأنا دون البلوغ حتى ضربت القرية بى المثل .

ثم وقعت الواقعة كالمتوقع .

ـ وضربتنى أمى . ولطمت خديها حتى سقطت على الأرض كالميتة ..

ثم هربت مع شاب إلى الإسكندرية حيث ذهب لإتمام تعليمه ، وسرعان ما تخلص منها بعد أشهر فوجدت نفسها وحيدة ، ثم بدأت هذه الحياة . وقال باسما :

ـ أنت بنت صغيرة ولكنك شيطانة كبيرة .

فقالت فى مباهاة :

ـ وعشقنى فى الأزاريطة خواجا عجوز فاتخذنى خادمة فى الظاهر ، وكانت له امرأة عجوز قعيدة الفراش !

ـ لكنك لم تحسنى الانتفاع بالفرص كأبلتك صاحبة القهوة !

فقالت ببساطة :

ـ أنا لا أطلب إلا الستر !

فضحك ضحكة عالية وقال لنفسه لعله من المفيد أن نصادف ما يقنعنا بأننا لسنا أبأس مخلوقات الله . وسألها :

ـ وما تنتظرين من المستقبل ؟

فرفعت حاجبيها لحظات ثم غمغمت :

ـ ربنا كبير .

ـ الظاهر انك متدينة !

وابتسمت لنبرة السخرية فى قوله ولاذت بالصمت فقال :

ـ لكنك عفريتة باعترافك .؟

فأغرقت فى الضحك وقالت :

ـ جاء وقت النوم وهو خير من إتعاب الرأس بلا فائدة .

وازداد إيمانا بأوجه الشبه التى تجمعه بهذه البنت . وسلم بأنها ضرورة لا غنى عنها فى وحدته وبخاصة عندما فظعت الملمات ، فقد هوت المعاول على الزعماء وانقضت المحاكات فانقبض قلبه خوفا كموزع المخدرات إذا دهمته أنباء القبض على المعلمين الكبار ، وأنكر الدنيا فلم يعد يعرفها . ولم يعد يدهش لأيام الشتاء العاصفة حين يغلق البوغاز وتتطاير أمواج الغضب من البحر الصارخ فتجتاح الكورنيش ، وتكفهر السحب كقطع الليل ، ويشتد البرق كالصواريخ . وتنهل الأمطار ككائنات هاربة من غضب السماء ، وبدت الغربة حمقاء عمياء ففاض حنينه إلى القاهرة ، وإلى ركن البوديجا الدافئ ، وقالت له :

ـ ترى أين أنت الآن ؟، إنك لست معى ، ولا أنت فى الدنيا كلها !

فعاد الحضور إلى نظرته المتعبة من التسكع فى الغيب وابتسم فى فتور دون أن ينبس ، فقالت :

ـ وهكذا أنت منذ أيام !

فقال فى ضجر :

ـ نعم ، أما أنت فلا تسمعين فى الراديو إلا الأغانى ..!

فتساءلت فى نبرة تطفل مستحيية :

ـ أنت من الأعيان ؟

فضحك ضحكة جافة وقال :

ـ أو عاطل من العاطلين !

ـ أنت !؟ كلا . ولكنك سر من الأسرار !

ـ إنهم يفشون الأسرار .

ـ خبرنى حتى متى تبقى كما أنت ؟

ـ دعينى أسألك نفس السؤال ..

ــ أنا حياتى ليست بيدى ..

ــ ولا أنا ..

ثم وهو يبتسم :

ــ وعندما يأتى الربيع سيذهب كلانا إلى سبيله .

فقالت بحرارة غير متوقعة :

ــ أنا لن أذهب حتى تأمر بطردى .

لعنة الله على العواطف . الكاذبة والصادقة على السواء . وأحدث توددها فى نفسه أثرا عكسيا أوشك أن ينقلب غضبا فركز انتباهه فى أغنية تذاع ، ثم أعلن المذيع عن برنامج اقتصادى تناقشه مجموعة من رجال الاقتصاد سمع عند تعدد أسمائهم اسم الأستاذ « حسن الدباغ » فسرعان ما وثب إلى الراديو فأغلقه . وسألته عن سر ضيقه فقال لها بحدة :

ــ قلت إنك لا تسمعين إلا الأغانى !

وفى الأيام الصافية من الشتاء كان يجوب الأماكن المحبوبة فى شتى الأنحاء بالإسكندرية . ولم يصحبها معه ولا مرة واحدة ولكنه لم يمنعها من ممارستها حريتها الكاملة فى الحركة . وقرأ فى عينيها رغبة فى مصاحبته ولو خطوات على الكورنيش ، ولكنه كره مجرد التفكير فى تحقيقها ، وسألته :

ــ ألا ترى أنك تعاملنى كما لو كنت ...

فقاطعها بحزم :

ــ لا تفتشى عن أسباب للنكد !

ثم رق لوجهها الذى تورد فى تأثر واضح فداعب شعرها القصير وقال بلهجة حانية :

ــ لا تفتشى عن أسباب للنكد ..

ولم تعد تفصح عن مشاعرها بالكلمات ولكن بالجهد المبذول فى خدمته ورعاية راحته . ولاقى جهدها بامتنان مشوب بسوء الظن . وقال إنه عما قليل يولى

الشتاء فيتحرر من هذه العلاقة التى اقتحمت عليه شقته . حتى سلوى لم يكد يبقى من تجربتها القاسية إلا جرح سطحى لعله من الكبرياء لا من الحب . وأدرك أن الفراغ الذى تركته السياسة فى قلبه سيحتاج فى سده إلى مغامرات قد تشق على النفس . ثم أدهشه فيما تلا ذلك من أيام أن يرى صحة البنت وهى تسوء بشكل ملحوظ . أجل الشحوب والإعياء والفتور والسحنة المنفرة . كيف يأتى هذا وهى تحظى بما لم تحلم به يوما من الغذاء وراحة البال ؟! وظن ما بها بردا ولكنه خلا فى الحقيقة من أعراض البرد ، ولازمها بإصرار أقلقه وشغله . وسألها :

ــ ماذا بك ؟ هل سبق أن عانيت هذه الحال من قبل ؟

أجابت بالنفى . وتهربت من ملاحقته ، وإذا بها ترقد على الفراش فى استسلام قهرى . ووقف يتفحصها بعينين قلقتين وضيق ثم قال :

ــ إذن يجب أن أدعو طبيبا .

فلوحت بيدها رفضا وقالت :

ــ كلا . مجرد ضعف من الرطوبة ..

واغرورقت عيناها فبدت طفلة بلا تجربة .. وساوره خوف لم يدر سببه فقال :

ــ لديك ما تقولينه بلا شك ..

اغمضت عينيها فى يأس ثم أشارت إلى بطنها ولم تنبس . ودق قلبه بعنف لم يجربه إلا عند الابتلاء بخطير الأحداث التى هصرته . وانقلب خوفه ضيقا خالصا . الهرة الماكرة قد وضح هدفها . وصاح بها :

ــ حية سامة ، هذا جزاء إيوائى لك ؟!

فولولت قائلة :

ــ لم أعرف إلا بعد فوات الوقت ..

ــ تدعين السذاجة يا شيطانة ؟!

ــ أبدا ولكنه وقع رغم الحذر .

ــ كذابة ، وحتى لو صدقتك فلم لم تخبرينى ؟

ــ الخوف !.. لم أستطع من الخوف !

فصاح :

ــ العفاريت تخاف مثيلاتك ، وماذا تنتظرين !.. متى تفعلين شيئا ؟

قالت بلهوجة وهى تشهق :

ــ لم أنس صديقة ماتت وهى تفعل ذلك ..

ــ وإذن ؟

واحتبس صوته من الغضب ثم صرخ :

ــ وإذن ؟!، افصحى عن مكرك !، اسمعى ..

ثم وهو ينذرها بسبابته :

ــ لا ترينى وجهك ، من الآن ، من الآن ، وإلى الأبد !

فتوسلت إليه قائلة :

ــ لم تضع الفرصة ولكن كن أحسن من ذلك ..

فقال بإصرار جهنمى :

ــ الآن .. الآن أنا فاهمك ولكن الآن وإلى الأبد .

١٧

اشتدت وطأة الوحدة عليه فلم يعد يتحمل الرجوع إلى الشقة إلا آخر الليل . ولكن خوفه من البنت فاق جميع عذاباته وجعل يتساءل ترى هل تتخذ الخطوات التى تقذف به إلى صميم الفضيحة العلنية ؟. هل يقف قريبا موقف الذل أمام النيابة ؟. كما سيحلو التشهير به عند الصحف !. وكم سيكون ذلك فرصة طيبة للتشهير بالآخرين وبعهد بأكمله !. وطوقه القلق فى وحدته كالبعوض فى مستنقع . ولكن تتابعت الأيام دون أن يتحقق شىء من مخاوفه أو يجيئه من البنت تعب . وثمة أسباب كثيرة أقنعته بوجوب العودة إلى القاهرة ولكنه تشبث بالبقاء فى الإسكندرية بلا سبب معقول ، وكلما اطمأن من ناحية البنت زاد تسبثه بعذابه ، ولم تعد العواصف تزعجه بقدر ما تفتنه ، والوحدة تغازله بسحر غامض قاتل ، أما جو الأجانب ذو العبير الغريب ففجر فى نفسه أحلاما بالهجرة الأبدية إلى قمم الجبال المنقوشة بالمراعى الخضر حيث ينقضى العمر بعيدا عن الكدر . وأحب ميدان الرمل حبا جما ، فهو مسرح دائم لحاملات الأناقة والشعور الذهبية الملفعات بمعاطف المطر . وكلما جاء ترام انطلقت أسراب الحسن تبهج الخاطر وتسكر اللب وتعزف بسيقانها مختلف الألحان . ورآه ضابط بوليس وهو يحملق فى حسناء ويهم بمتابعتها فالتقت عيناهما وابتسم الضابط فتراجع عيسى من فوره وهو يتفكر ما كان له من رهبة فى نفوس جميع الرتب من ضباط البوليس . واتخذ وراء الزجاج مجلسا فى « على كيفك » المشرف على الميدان . وتيار البشر يتلاطم بلا انقطاع فيعيش فيه ما شاء بلا ملل . الماضى المشحون بالطموح لم يسمح بجلسة كهذه وإن تكن جلسة منبوذ كالزبد الذى يخلفه الموج فوق الساحل حتى يجمعه عمال البلدية . وأين الأعزاء الكبار



فبسط يسراه متظاهرا بالحيرة فقالت بتعجب :

ــ إذن فأنت لا تعرفنى ..

الذين أجبروا على الاختفاء ومتى تجف الدموع عليهم !. واللهو فى تلك الأيام لم يؤخذ إلا خطفا وبلا تذوق ودون علاقة إنسانية حقيقية ، وعندما أذن الزمان بإنشاء علاقة إنسانية هب الإعصار فاجتاح كل قائم . وها هو الجو يكفهر وتبتلع قوة مجهولة الضياء وتتكدس السحب فيلوح الآدميون الملونون كالأطياف . يا إسكندرية الشتاء المتقلبة كامرأة !. وهب الهواء عنيفا كأنباء السوء فحبكت الأيدى البضة المعاطف وأغلق باعة الصحف معارضهم وأمسى الاحتماء بزجاج « على كيفك » واحتساء الشاى الساخن نعمة النعم . وجعجع الرعد فشرد القلب وهطل المطر بقوة ورشاقة حتى وثق ما بين السماء والأرض بأسلاك مكهربة ، وخلا الميدان وتكتل البشر تحت مظلات الأسمنت فبعث منظر تلاصقهم الدفء فارتاحت نفسه وطابت .

وسمع نحنحة خفيفة فالتفت إلى يساره فرأى ريرى مستقرة على كرسى لا يفصلها عنه سوى ترابيزة واحدة !. حول رأسه إلى الميدان بسرعة ولكنه لم يعد يرى إلا صورتها فى المعطف البرتقالى القديم فى مزيج من أفكاره المضطربة ، لقد التقت العينان لحظة قصيرة جدا ولكنها مليئة بتعبير مأساوى باسم . أهى تتبعه عن قصد أم رماه بها التسكع وحده ؟!. وهل تنتهى الجلسة بسلام أو تنفجر فى ذروة من الفضيحة ؟. وهل تخلصت من الشىء أو ما زالت مصرة على الاحتفاظ به ؟. وقرر أن يغادر المكان ولكنه انتبه إلى الميدان فرأى العاصفة تتمادى فى هياجها وسلم بأنه سيظل حبيسا داخل المحل على رغمه . وقرر أيضا أن يغادر الإسكندرية فى أول فرصة ، غدا لو أمكن ، ثم تظاهر باللامبالاة وأسند خده إلى قبضته كالمتأمل الحالم !. وخطر له خاطر سيئ جدا وهو أن حضورها ما هو إلا جزء من خطة متفق عليها مع البوليس للقبض عليه . وأنه آن له أن ينضم إلى ركب أبناء جيله البارزين الذين يقذف بهم تباعا خارج الأسوار . وقد يسوق ذلك إلى ما هو أدهى إذ أنه لا شك فى أنهم مطلعون على رصيده فى البنك وأنهم قد يطلقون عليه هذا السؤال « من أين لك هذا » فى أى لحظة . وما يدرى

إلا والبنت تجلس إلى ترابيزته وهى تقول :

ــ قلت أدعو نفسى ما دام لا يريد أن يدعونى !

حدجها بنظرة جامدة تخفى وراءها ذعره ولم ينبس فقالت :

ــ لا تزعل ، سنجلس معا بعض الوقت كما يليق بالأصدقاء القدامى .

وقال لنفسه هذه هى الخطوة الأولى فى المكيدة ولعل المتآمرين الآخرين يترقبون . وصمم على الدفاع عن نفسه حتى الموت ، فقال بصوت يسمعه القريبون منهما :

ــ عم تتحدثين .. أنا لا أفهم شيئا !

فأخذت بتجاهله وانطفأت المداعبة فى عينيها وتمتمت :

ــ أنت تقول هذا !

فبسط يسراه متظاهرا بالحيرة فقالت بتعجب :

ــ إذن فأنت لا تعرفنى !

ــ أنا آسف جدا . لعلك أخطأت فى الشبه !

ولفتها الخيبة بصورة محزنة ، ثم أطبقت شفتيها فى غضب أحال سحنتها نذيرا بالشر حتى توقع كارثة أمام الجلوس ولكنها قامت وهى تقول فى سخرية وتحد :

ــ يخلق من الشبه أربعين ..

وشعر لشدة انفعاله بدوار . ولم يصدق أن المعركة ستقف عند هذا الحد . وكلما تذكر سحنتها المنقلبة ارتعد وأيقن أنها تخفى نمرة تحت جلد البنت المرحة . ولبث فى ذهوله لا يدرى كم لبث حتى انتبه إلى أن المطر قد كف عن الهطول وأن فرجة تتسع فى الأفق ينبثق منها شعاع وان مغسول . ونهض بلا تردد فارتدى معطفه ومضى دون أن يلتفت ناحيتها . وعندما رجع إلى العمارة بعد منتصف الليل وجد فى انتظاره برقية مرسلة من العائلة لتنبئه بوفاة والدته .

١٨

تقرر تشييع الجنازة من القبة الفداوية عصر اليوم التالى ، وقد سبق عيسى إلى هناك ليستقبل المشيعين فصادف وصوله قدوم حسن ابن عمه فى سيارته المرسيدس ، ولم يدهش للسيارة بطبيعة الحال ولكن منظرها أثاره . وعجب للتحسن الواضح الذى طرأ على صحة ابن عمه ، والاستعلاء الذى شد قامته ، والسيادة المطلقة من عينيه . وتصافحا ووقفا ينتظران تحت ظل شجرة ، وجعل حسن يتفحصه ويقول :

ــ ليست صحتك كما كنت أنتظر !

فقال عيسى وهو يستعرض أحزانه فى لفتة خاطفة :

ــ لعل الجو لم يناسبنى ..

فقال الشاب بلهجة تقريرية قاطعة :

ــ رحلة لا معنى لها ولكنك رجل عنيد !

وقال عيسى إنه لم يعدل بعد عن حلمه القديم فى تزويجه من أخته . ثم جاء الأصدقاء سمير عبد الباقى وإبراهيم خيرت وعباس صديق وبعض الشيوخ والنواب السابقين . وجاءت أفواج من الناس لا حصر لهم لتعزية حسن فاكتظ بهم السرادق على سعته . وكانت لحظة حرجة حين هبط على سليمان من سيارته . وقد استقبله حسن ، ولم ير عيسى بدا من استقباله فتصافحا وتلقى تعزيته دون أن يتبادلا نظرة واحدة . وتتابعت الخطوات التقليدية واحدة بعد أخرى ، ولم يخرج عيسى عن رزانته إلا ساعة الدفن فاغرورقت عيناه رغم ما بذل من جهد صادق لضبط مشاعره . وقد أشرف على جميع الإجراءات بنفسه . ولم يستطع أن يقاوم الإغراء الأبدى فألقى بنظرة طويلة إلى جوف القبر . وشعر

برغبة فى الخلو بنفسه ليقول لها أشياء هامة ، ثم وثب إلى مخيلته موقف الوداع الأخير بينه وبين أمه فى البيت القديم وقد لثمت جبينه وقالت :

ــ افعل ما تشاء ، وليحرسك المولى أينما تكون ، أما أنا فسأحبس دموعى حتى تذهب بالسلامة !

ولا يكاد يذكر تعابير وجهها لأنه لم ينعم فيه بالنظر ولكن كانت يدها باردة منتفضة . وانتحى جانبا عندما بدأت التلاوة الجماعية . وتبادل وأصحابه نظرات متعاطفة أكثر من مرة . وسأل نفسه بتأنيب « لم تحزن أكثر مما ينبغى ؟ » . ثم قال لنفسه أيضا بحماس مريح لم يخل من شماتة « هذا هو المصير الأخير . لكل مسكين ولكل جبار . أجل ولكل جبار ! » .

واقتصر العزاء فى البيت ليلا على الأهل والأصدقاء الثلاثة ، أما على سليمان فلم يحضر ، وتجنب عيسى الانتقال إلى الحريم كيلا يرى آل عمه ولكنه تساءل باهتمام هل حضرت سوسن هانم وسلوى !. وفى الحجرة التى جمعته مع سمير وعباس وإبراهيم وحسن شهد صورة أقرب ما تكون إلى الفكاهة إذ لم يجرؤ أحد من أصدقائه على الإفصاح عن مشاعره السياسية فى حضور حسن ولما كانت السياسة جزءا لا يمكن إهماله فى أى اجتماع فلم يروا بدا من النفاق فنوهوا بالأعمال التاريخية المذهلة كإلغاء النظام الملكى والقضاء على الإقطاع والجلاء ، وبخاصة الجلاء ذلك الحلم القديم ، ولم يشترك عيسى فى الحديث إلا قليلا لغلبة الإعياء عليه ولشعوره بالفراغ والحزن ، ودارى سخريته من الموقف بالتظاهر بالإصغاء إلى تلاوة القرآن المنبعثة من الصالة حيث تربع مقرئ من الدرجة الثالثة . وقال لنفسه إن حسن بات ركنا خطيرا يعمل له ألف حساب . ألا يبدو هذا مضحكا ؟!. واستسلم للشعور العجيب بأن أمه لم تمت أو أنها لا تزال حية بطريقة ما أو أن روحها لم تغادر البيت بعد . ثم ذكر بدهشة حلم الجلاء القديم وكيف أصغى إلى أنباء إعلانه بارتياح فاتر مشوب بالغيظ لا لشىء إلا لأنه لم يتحقق على يد حزبه . وما تمالك أن قال :

ــ الحقيقة أن الجلاء ثمرة للماضى !

ولم يعلق أحد من الأصدقاء بكلمة على حين نشط حسن للبرهنة على فساد هذه الفكرة ، وإذا بإبراهيم خيرت يقول :

ــ الحقيقة أن جميع ثوراتنا القديمة ثورات بلا نتائج حاسمة ، ثم جاءت هذه الثورة لتحقق رسالات الثورات القديمة بالإضافة إلى أهدافها الذاتية ..

وتواصل الحديث حتى خلا البيت . وحين مضى ليوصل ابن عمه إلى الباب الخارجى توقف فجأة ثم ابتسم إليه فى تودد قائلا :

ــ كان سفرك خطأ ويجب أن تعيد النظر فى موقفك ..

فابتسم عيسى بلا أدنى رغبة فى الحديث فعاد الآخر يقول :

ــ خبرنى عن أمل واحد من آمالك الماضية لا يتحقق اليوم .. فيجب أن تلحق بالقطار ..

وهز رأسه هزة غامضة ، ثم تصافحا وحسن يقول :

ــ عندما تغير رأيك ستجدنى رهن إشارتك ..

فشكره عيسى بنبرة امتنان واضحة . والحق أنه تأثر كثيرا لحسن مجاملته ولكنه أبى أن يفكر فى زحزحة الجدار الذى يصده عنه . وكثيرا ما يسلم بمنطق خصمه ويعترف بهزيمته الخفية أمامه ، ولكن كلما ازداد عقله اقتناعا غاص قلبه فى الامتعاض الآسن . وخلا بعد ذلك بأم شلبى التى حيت مقدمه بالبكاء على الراحلة . انتظر حتى سكتت ثم سألها :

ــ كيف كان حالها ؟

فقالت وهى تجفف عينيها :

ــ لم ترقد يوما واحدا .

ــ إذن فجأة ؟

ــ نعم ، وبين يدى من حسن الحظ ..

ــ هل كانت تطول وحدتها بالبيت ؟

ـ أبدا ، كل يوم كانت تزورها ست من أخواتك .

ـ الليلة ألم تحضر سوسن هانم ؟

ـ نعم يا سيدى حضرت .

وبعد تردد قصير سألها :

ـ وسلوى ؟

ـ لم تحضر يا سيدى .

ورمشت بعينيها ثم استطردت :

ـ كتبوا كتابها على سى حسن ابن عمك .

انتفضت عيناه المتعبتان فى نظرة يقظة دهشة ثم تساءل :

ـ سلوى وحسن ؟

ـ نعم يا سيدى ..

ـ متى ؟

ـ فى الشهر الماضى ..

مد ساقيه بلا مبالاة . وألقى برأسه على مسند المقعد فرأى السقف القديم الباهت القائم على أعمدة أفقية ، ثم استقرت عيناه على برص كبير فى أعلى الجدار تراءى فى وضعه الجامد كالمصلوب .

١٩

فى جو يونية المشبع بالدفء يحلو المجلس على طوار البوديجا وبخاصة عندما يحمل المساء نسمة لطيفة . وقد يسود الصمت عند مرور حسناء ولكنهم لا يشبعون بحال من حديث السياسة . وبالرغم من المركز الذى يشغله عباس صديق فى الحكومة والمكانة التى يحتلها إبراهيم خيرت كمحام وكاتب من كتاب الثورة فإن موقفهما لم يختلف فى شىء عن موقف عيسى أو حتى سمير عبد الباقى الجانح إلى الهدوء ، وقد لخص إبراهيم خيرت شعورهم العام بكلمة من كلماته إذ قال :

ـ تكون فى فمك وتقسم لغيرك ..

وطبعهم الاستسلام بطابعه ولكن الأمل فى معجزة ليست فى الحسبان لم يمت ، ومن أتفه الأحداث يتلقفون أحيانا ما يبعث فى موات نفوسهم نفضة حياة غامضة . ومن عجب إن إبراهيم خيرت وعباس صديق يثبتان بصورة مستمرة أنهما أشد تذمرا من عيسى نفسه وقد قال لهما ضاحكا :

ـ أنت كاتب كبير وأنت موظف كبير فماذا تريدان ؟

فقال عباس بصوته الرنان المنسجم تماما مع جحوظ عينيه وبريقهما :

ـ الحالة الخاصة مستكنة ولا شك ولكنها لا تتغير من النظرة العامة ..

وقال إبراهيم خيرت :

ـ الحقيقة أنه لا قيمة لإنسان اليوم مهما علا شأنه ، نحن بلد الفقاقيع ..

فقال عباس :

ـ كنت وأنا فى الدرجة السادسة لا غير فى حكم وزارة بأكملها .

وقال سمير عبد الباقى باستسلام مريح :

ــ لم يعد يهمنى شىء ألبتة !

ــ يمكن أن يعتبر موقفك أشد تطرفا منا جميعا !

فسارع إلى إصلاح رأيه قائلا :

ــ أعنى لم تعد تعذبنى الحسرة على ما فات ، وأحيانا أدعو لهم بالتوفيق ، ولا تهمنى غربتى لأننى اخترتها ..

فداعبه عيسى قائلا :

ــ قل إنها فرضت عليك ..

ــ ولكنى اخترتها فى نفس الوقت ، ولتكن مشيئة الله ..

وربت إبراهيم على كتف عيسى قائلا :

ــ وأنت لِم لا تتكلم ؟، ألا جديد عندك ؟

فقال عيسى ببساطة :

ــ علقت منذ أيام إعلانا على باب بيت المرحومة الوالدة « للبيع » .

ــ بيت قديم لكنه صقع !

فقال عيسى بسرور :

ــ سيمكننى نصيبى منه من أن أعيش حياة الأعيان التى أحياها أطول مدة ممكنة ..

ــ هل تجدها حياة موفقة ؟

ــ لعل فيها الشفاء من انقسام الشخصية الذى أعانيه ..

فتساءل عباس صديق :

ــ مرض جديد !؟

فقال عيسى بعد تأمل :

ــ الحقيقة إن عقلى يقتنع أحيانا بالثورة ولكن قلبى دائما مع الماضى ، والمسألة هل يمكن التوفيق بين عقلى وقلبى ؟!

فقال إبراهيم خيرت :

ــ المسألة ليست مسألة مبادئ يقتنع بها العقل ولكن العلاقة بين الحاكم والمحكوم تتقرر بطريقة خفية كما فى الحب ، ويمكن أن نقول إن أظفر الحكام بقلوب المحكومين هو أعظمهم احتراما لإنسانيتهم ، وليس بالخبز وحده يحيا الإنسان !

فقال عيسى بحزن :

ــ ولذلك فحتى لو حظيت بعشرات الأعمال فسوف أظل بلا عمل ..

فقال عباس صديق :

ــ أهو العقل أم القلب الذى يتكلم ؟!

فقال سمير عبد الباقى باسما :

ــ للقلب « عندنا » معنى مختلف كل الاختلاف ..

تساءل عيسى :

ــ لِم نضحك والحياة مأساة بكل معنى الكلمة ؟

فقال إبراهيم خيرت :

ــ نحن نعتبر الموت ذروة المأساة ، ومع ذلك فموت الأحياء أفظع ألف مرة من موت الأموات ..

فضحك عباس صديق ضحكة كالفرقعة وقال :

ــ ما أنسب أن يسوقنا الحديث عن الموت إلى حديث الذرة مثلا !

فقال عيسى ولم يكن قد خرج تماما من حزنه المفاجئ :

ــ التهديد بالذرة من شأنه أن يخفف من متاعب الحياة ، أعنى حياتنا ..

فتساءل عباس صديق فى سخرية :

ــ والحضارة ؟، ألا تخشى على الحضارة ؟

ــ من حسن الحظ أننا لم ندخل الحضارة بعد فما خوفنا من البلل ؟

فقال إبراهيم خيرت :

ــ ليكن عهد كعهد الطوفان ليطهر العالم ..

فسأله عباس صديق :

ـ هل سمعت عن ذلك من مصدر مسئول ؟

فقال سمير عبد الباقى :

ـ فنعترف بأنه لولا الموت لما كان للحياة قيمة ..

ـ ما أكثر الكلام عن الموت ..

وتذكر عيسى موت أمه وزواج سلوى من حسن والقسوة التى عامل بها ريرى . وقال لنفسه إن السمر مع هؤلاء الأصدقاء تسلية شاقة أما حديث حسن فإنه يزيد انقسام شخصيته حدة . ومال سمير نحوه قائلا :

ـ مشكلتك تعتبر يسيرة بالقياس إلى مشكلة العالم ، أنت يلزمك عمل وزوجة ..

فقال عيسى دون مناسبة ظاهرة :

ـ لذلك فأنا أحب أفلام الرعب ..

فقال عباس صديق :

ـ عيب هذه الأفلام أنها خيالية ..

فقال عيسى :

ـ بل عيبها أنها واقعية أكثر مما يجب ..

وانطلقت صفارة الأمان خطأ واستمر انطلاقها نصف دقيقة . وقال عيسى إنه سيجد نفسه فى النهاية باحثا عن عمل وعن امرأة ، ولكن ذلك لن يقع حتى يسلم بالهزيمة ويخرج نهائيا من التاريخ .

٢٠

حياة آخر الليل حادة اللذة ولكنها لا تدوم فضلا عن فداحة ثمنها . وللأريزونا جمال خاص عند منتصف الليل ، فالرقص يدور مع حسناوات من أمم شتى ، والشراب ممزوج بندى الفجر ، ثم إنك تستطيع أن تقتنع بالكذب . وفى الحديقة الخلفية لا يوجد إلا العشق والعشاق وضوء القمر أو ضوء النجوم ، والنقود لا قيمة لها ألبتة والعواطف تهرق بلا حساب ، وقال إنه لا جديد فى الصورة ، غير أنه يمارس أكاذيبه فى الحياة اليومية فى جو شديد الجفاف أما هنا فهى تمزج مع الأغانى فى جو من الطرب ، وسلوى قد عرفت التفاهة ولكنها لم تعرف الطرب .

وخطر له أن يسأل صديقته الإيطالية فى الحديقة :

ـ أنت طوفت بلادا كثيرة فما رأيك فى الناس ؟

وكانت متعة الحواس الخمس فأجابت :

ـ أنا ألقاهم عادة عندما يكون السرور مطلبهم فهم طيبون جدا .

ـ ولكن ذلك كله كذب !؟

ـ فى الأقل فهم يرغبون فى بصدق ؟

ـ مجرد انفعال عابر .

ـ وهكذا كل شىء !

فضحك ، وتردد قليلا ، ثم قال :

ـ ولكن حتى هذا الانفعال العابر لا تجدينه فى نفسك ؟

فقالت فى دعابة :

ـ إذن فأنت لا تصدق أننى أحبك ؟

فسألها باهتمام :

ـ كيف لم يتأت لمثلك أن تنعم بالاستقرار ؟

فغنت أغنية إيطالية . ومرت به لحظة تأثر بجمالها فحزن لامتهانه ولكنه قال إن قيما ثمينة غير الجمال تلقى نفس المصير كالحرية والآدمية وحتى الدين يتاجر به أناس بلا حياء ، وإنها فى الحقيقة مأساة واحدة ، وهو نفسه وقع فى نفس العبث فى ماضيه فهضم ألوانا من الفساد وشارك فيه . ولا يزال رصيده فى البنك شاهدا على ذلك ، فلم لا يسود النقاء ؟. وما الذى حال دون ذلك طوال القرون ؟. وهل يوجد فى مكان ما من الأرض إنسان يعيش بلا خوف ولا رذائل ؟

وجعل يتسلى بتعقب الفتيات فى شوارع القاهرة ، وبخاصة الصغيرات منهن كأن قوة تدفعه إلى منابع السذاجة ، ولكنها لم تكن إلا رحلات عابثة غامضة وبلا نتائج ، وكلما اشتدت العواصف السياسية وأطاحت بمعنى أو برجل من ماضيه ترنح من هول الصدمة حتى تمنى يوما لو كان للمصريين ـ كما لغيرهم ـ جالية فى أمريكا الجنوبية ليهاجر إليها . وقال ساخطا إن المصريين زواحف لا طيور . وراوده حلم بتغيير جذرى فى حياته . ولكنه لم يكن يفعل سوى العبث . وقد شكا إلى صديقه سمير عبد الباقى فقال له :

ـ أين شراعك ؟.. أنت زورق بلا شراع !

وعند الرابعة من مساء يوم جاء سمسار الوايلية وهو يقول :

ـ بعضهم يرغب فى مشاهدة البيت ..

ودخلت سيدتان ، عجوز فى السبعين وابنتها ـ من الشبه بينهما استنتج ذلك ـ فى الأربعين أو دون ذلك بقليل ، تقدمهما من حجرة إلى حجرة وهو يجيب على أسئلتهما ، وكانت العجوز نحيلة بيضاء البشرة رمادية العينين ذات جفون ثقال ونظرة تدل على الخبرة والثقة بالنفس ، أما ابنتها فمتوسطة الطول ممتلئة الجسم والوجه ولها عينا بقرة وهدوؤها . وقد لاحظ دهشتهما من التناقض الواضح بين قدم البيت وفخامة الأثاث وعصريته فضايقه ذلك وأهاج إحساسه الراسخ بالمطاردة . وبعد أن ألقيا نظرة على الحوش الكبير دعاهما إلى الجلوس فى



.. فضحك ثم قال : ولكن حتى هذا الانفعال العابر لا تجدينه فى نفسك

حجرة الاستقبال وقدم لهما القهوة . وشهد المجلس السمسار بجلبابه الأبيض ورأسه العارى وهو يتفحص الجميع بعينيه الضيقتين ويقول :

ــ البيت عبارة عن مساحة كبيرة تصلح لإقامة عمارة على ناصيتين ، ميدان الكومى وشارع الجلال بحرية غربية ، موقع نادر المثال ، والحى فيما حوله يتجدد بسرعة كما رأيتما فخمس عمارات جديدة تشيد فى وقت واحد وهو ما يزيد من قيمته ..

فقالت الابنة التى وضح لعيسى سواد عينيها وفخامة ملبسها :

ــ ولكن البيت قديم جدا ولا يصلح للسكنى ..

فقال عيسى :

ــ طبيعى أن الذى يشترى بيتا كهذا البيت لا يشتريه للسكنى ولكن للبناء كما قال الحاج حسنين ، والأرض صقع ، والبيع بأجر المثل ويمكن خضرتك أن تسألى عنه بنفسك !

فقال الحاج حسنين :

ــ هذا عن الحاضر أما المستقبل فالحى كله مضمون وما من حى فى الدنيا مثله فى موقعه أو ازدحامه بالسكان أو مواصلاته الكثيرة ...

وسألت الابنة عيسى عن المساحة بصوت حلقى ملء كوجهها ولكنه مثير فى الوقت نفسه ، وقد كون عنها فكرة أولية بأنها امرأة جديرة بالاحترام لفخامة مظهرها ، وقد تشتهى أيضا لفترة ما . وأجاب :

ــ ألف متر مربع ولعل الحاج أبلغكما بالثمن المطلوب ..

فتساءلت العجوز :

ــ عشرة آلاف جنيه ؟!. أين تجد القادر على دفع هذا المبلغ ؟

فأشار عيسى إليهما ضحكا وهو يقول :

ــ هنا أجده ..

وقال الحاج حسنين بتوكيد :

ــ فرصة لا تجود الدنيا بمثلها مرتين والله شهيد ..

ورفض عيسى أن يخفض من الثمن قرشا واحدا . واستمرت المساومة طويلا ولكنها كانت تصطدم بإصراره ، وفى أثناء ذلك تبادل عيسى والابنة نظرات غير تجارية على سبيل الاستطلاع فغلب على ظنه أنها غير متزوجة . وقال لنفسه إنها غنية ومقبولة : أجل ليست من الطراز الذى يحبه ولا السن التى تناسبه ولكنها غنية وهادئة وعلى خلق فيما بدا له . ولم تكن إلا خواطر عابرة من وحى المجلس ولكن خيل إليه أن العجوز تتابع خواطره .

وانتهت الجلسة بلا تراجع من ناحيته ولا قبول من ناحيتها ..

٢١

ونصحه السمسار بأن يتساهل بعض الشيء ولكنه رفض بعناد لحاجته الماسة إلى تأمين مستقبله. ولسوف يضمن ـ إذا قبض نصيبه من ثمن البيت ـ مستوى من المعيشة كمستواه الحالى لعشرة أعوام على الأقل وقد تتفتح له أبواب عمل مناسب فى أثناء هذه الفترة الطويلة. ولم تعارض موقفه أخت من أخواته الثلاث وتركن له مطلق الحرية فى القبول أو الرفض ومضت أيام حتى أدركه الجزع ولكن السمسار جاءه ليزف إليه بشرى قبول السيدة للثمن المطلوب ، ومن ثرثرة السمسار عرف أن عنايات هانم أرملة مأمور بوليس ولكن الثروة ورثتها عن أبيها ، وأن ابنتها قدرية هى وحيدتها مطلقة منذ خمس سنوات ولم تنجب أطفالا .

وقد مضى إلى زيارة السيدة فى مسكنها بعمارة تمتلكها بميدان السكاكينى ودل أثاث المسكن الكلاسيكى الفاخر على عراقة حقيقية فى الجاه وتم الاتفاق على الإجراءات فى جلسة ودية وقال عيسى بلباقة وهو يشير إلى صورة المرحوم :

ـ أنا أعرف المرحوم ، سمعت عنه أول عهدى بالعمل ، ما أقنعنى بشهامته ووطنيته .

وأحدث كلامه أثرا طيبا جدا فى نفس المرأتين .. ودعته عنايات هانم للبقاء بعض الوقت . وما لبث أن جاءت خادم بالشاى والحلوى الفاخرة ، وأعربت العجوز عن سعادتها إذ مكنتها المصادفات من استضافة شخص من المعجبين بالمرحوم ولكن عيسى لم يأنس منها أريحية تبرر هذا الكرم وحدس أن الدعوة موجهة لحساب الابنة التى جلست فى هدوء تملأ فراغ المقعد بجدارة وترمقه بين حين وآخر بنظرة ناعسة . وقالت عنايات :

ـ وأيام الخدمة بالأقاليم لا تنسى ، أيام مليئة بالخير ، ونال المرحوم تقدير

سعد زغلول فنقله إلى الداخلية عام ١٩٢٣ ولكنه تعرض لأسوأ أنواع المعاملات فى عهود الانقلاب ..

ثم أثنت على صدق فراسته واستشهدت على ذلك قائلة :

ـ عندما تقدم زوج قدرية لخطبتها أعرب المرحوم عن عدم ارتياحه له ، ولكنى تشبثت به فكنت المسئولة عن سوء حظ ابنتى !

تلقى عيسى الكرة بارتياح ثم تساءل :

ـ ترى كيف كان ذلك ؟

ـ كان من أسرة ولكنه ذو خلق منحرف ، ابنتى طيبة وست بيت وكريمة الأخلاق فلم تقبل بطبيعة الحال أن يجعل من بيتها خمارة وملعبا للقمار !

فتأسف عيسى قائلا :

ـ يا للحظ السيئ ، ولكن ربنا يعوض صبرها خيرا .

ومضى وقت غير قصير فى ثرثرة هادئة ، وجعل عيسى يتساءل عن مدى قدرته على استساغة امرأة كقدرية يمكن أن يعتبرها نوعا من التأمين مدى الحياة وسوف يجدها بلا ريب حظا طيبا إذا قدرت على ضوء ما عاناه من تقلب الدهر . وعندما غادر البيت اطمأن إلى أنه قد استأثر باهتمام المرأتين لدرجة لا بأس بها ، وقال لنفسه فى غير قليل من الأسى : قدرية فى حاجة إلى رجل وأنا فى حاجة إلى امرأة . ورسم خطة للتحرى عن قدرية كالعادة .

وقررت التحريات أنها تزوجت ثلاث مرات لا مرة واحدة ، الأولى لم تستغرق إلا شهرا إذ كتب كتابها على قريب لوالدها وقبل أن تتم الدخلة وضح لهم طمعه فى مالها ونفعيته المفضوحة فحمله أبوها على تطليقها . والثانية استهلكت أربعة أعوام أو خمسة . ولم تقبل الأم أن تهبها من مالها شيئا رغم مطالبة الزوج بذلك وإلحاحه عليه لاقتناعها بأنه يستطيع أن ينهض بمسئولياته دون مساعدة منها وأن مطالبه غير معقولة وناطقة بسوء نية فانتهى النزاع بالطلاق . والثالثة استمرت أعواما ستة وبشرت بالدوام وبخاصة بعد أن غيرت الأم سياستها

وأغدقت على ابنتها من مالها ما كفاها وأكثر ولكن الزوج كان يرغب فى إنجاب أطفال ، ولم تسعفه قدرية فى ذلك ولا وعدت به قياسا على حياتها الزوجية السابقة فتزوج الرجل سرا ، ثم انكشف سره فاعترى الحياة تنغيص لم يستطع تحمله إلى ما لا نهاية فكان الطلاق الثالث .

هذه هى قصة قدرية ، غير أن عيسى لم يعرضها بتفاصيلها فى ركن البوديجا ولكنه قال :

ــ امرأة لا بأس بها ترغب فى الزواج منى !

فتحولت إليه الأعين كأنها بوصلات تنجذب إلى قطب ، فقال بارتياح ممزوج بزهو :

ــ من أسرة عريقة وغنية ..!

فقال عباس صديق بصوته الرنان كأنما يعلن الخبر على الملأ :

ــ الصفة الأخيرة هى المطلوبة !

وقال إبراهيم خيرت باسما ليدارى انفعالا بالحسد :

ــ مبارك ، من الخير أن نرم بيتنا الآيل للسقوط بفعل أعاصير السياسة !

واغتاظ عيسى من هذه الملاحظة فردها قائلا :

ــ وبخاصة وأننى لا قلم لى أستغله فى التقرب من الأعداء !

وضحكوا جميعا . وانهالت عليه الأسئلة من كل لون ، وجعل يجيب بحذر حتى تراكمت أكاذيبه . ولم يفض بذات نفسه إلا لسمير عبد الباقى وهما يسيران منفردين بشارع سليمان باشا ، صارحه بالحقيقة بلا رتوش فسأله سمير :

ــ ألا يهمك إنجاب الذرية ؟

فأجاب بامتعاض :

ــ يهمنى أن أجد رفيقا فى وحدتى . وهذه امرأة لا بأس بها مستعدة لأن تقبلنى بعيبى فلم لا أقبلها بعيبها ؟، وأين هى الفتاة الكريمة التى ترضى بى بحالتى الراهنة ؟!..

وزار عنايات هانم ليطلب يد قدرية فوجد منها استعدادا طيبا لقبوله ، وقال :

ــ سأصدقك القول فإن الكذب هو عدو الزواج ، لى رصيد فى البنك لا بأس به ومنه نصيبى من البيت الذى آل إليك ، ولى أيضا معاش صغير ، وليس لى عمل فى الوقت الحاضر ولكن من الممكن أن أجد عملا محترما فى المستقبل ، وقد أخرجت من الحكومة لا لسبب يمس الشرف ولكن للتعصب السياسى الأعمى ، ولم يكن من الممكن أن يبقى العهد الحاضر على شخص مثلى يعده فى غاية الخطورة !

فقالت العجوز :

ــ جميل .. جميل ، نحن لا تهمنا الثروة ، ولا نفضل العمل إلا لأن الفراغ غير مستحب ، ولا أشك فى شرفك فقد قاسى المرحوم زوجى كما تقاسى ، وقلبى يحدثنى بأنك ستكون خير زوج لابنتى .

ولم تفاتحه عن زيجات ابنتها المتعاقبة ولا عن عقمها ، فارتاح لذلك إذ أنه رأى أن اطلاعه على عيوب العروس مقدما لن يترك له فرصة فى المستقبل لتمثيل دور الزوج المخلص الذى خاب أمله وهو دور مهم جدا لتعزيز مكانته وسيطرته ..!

٢٢

وسافر إلى رأس البر لقضاء شهر العسل فى عشة عنايات هانم ، ونمت العلاقات بين الأطراف الثلاثة على وجه يبشر بالخير . وقد أراد أن يكون منذ البدء « رجلا » بمعنى الكلمة فلم يلن فى موقف يندم عليه مستقبلا . ولذلك رفض أن يقيم فى مسكن الأم كما اقترحت وأصر على السكن مع زوجه بعيدا فى الدقى ، حى الذكريات التى لا تنسى . وصارح الأم بشجاعة غريبة ــ على حد وصفها لها ــ بأنهما ــ هو وزوجه ــ يجب أن يتمتعا بمالها فى حياتها ليدعوا لها بقلب خالص بطول العمر !. كان يقف وراء مطالبه حتى تنفذ بحذافيرها وهو يقول لنفسه إن الذى أضاع حزبه الجبار لم يكن سوى التساهل فى أواخر عمره الحافل بالعناد والإصرار !

وكان يرى رأس البر لأول مرة فى حياته فأعجب بطابعها الخاص الجامع لمحاسن المدينة والريف والساحل ، وفتنة ملتقى النيل والبحر ، والهدوء الشامل كحلم سعيد ، والوجوه النضرة . والهواء اللذيذ الجاف الذى يستبيح عصمة البيوت من جدرانها المضيافة ، ولم يجد أحدا من أصدقائه فى المصيف فوهب وقته كله لأسرته . وصادف الزواج توفيقا بديعا وشعر بأنه سيطرٌ على زوجة بقوة واقتدار ، ولأول مرة آلمته البطالة إذ وجد الحياة فى البيت تدور على محور غير محوره ، وأن شخصيته وحب زوجه له ومجاراة حماته لرغبته ، كل أولئك لم يدفع عنه ذلك الإحساس المؤلم . وقديما كان يمارس حياة الأعيان أمام الناس بماله ، اليوم تتعلق الأبصار بزوجه وأموالها ولن يصدق أحد أنه سيواصل إلى الأبد حياته المرفهة بنصيبه فى البيت المباع أو بمعاشه . وجعل يدارى أفكاره بالتظاهر بالبساطة والثقة والضحكات العالية ، ولكنه أيقن أن حياته لن تدوم على هذا

المنوال ، وأن عليه أن يستثير همته النائمة ليبدأ عملا حرا جديرا به .

وأكملت المعاشرة معرفته بزوجته فقد تكشفت له عن أستاذة فى المائدة والملبس سواء من ناحية الذوق أو الصنعة ، فأتخمته بألوان الطعام التى تقدمها وبخاصة الحلوى التى تتفنن فى تأليفها . وهى أكولة لحد الإفراط وتغرى من يؤاكلها بالإفراط كذلك . وهى مسلية جدا لإتقانها الألعاب البريئة كالنرد والكونكان ومولعة بالسينما والمسرح الفكاهى وإن يكن تعليمها الابتدائى قد محى من ذاكرتها تقريبا ولم يبق لها منه إلا قدرة ضعيفة على القراءة أو كتابة رسالة ركيكة . وهى امرأة بكل معنى الكلمة ، متأججة العواطف فلم تدع له مجالا للشكوى من هذه الناحية ، غير أنه توجس خوفا من توثبها إلى ازدراده كلما أمكن ذلك ، ورغبتها غير الواعية فى أن تجعل منه زوجا وأبا وابنا فى آن . ولعل لذلك صلة بتطلعها الدافق الحزين إلى الأطفال ، وإعرابها عن مشاعرها المكبوتة بالسهوم والنظرة القلقة والحركات العصبية الطارئة التى لا تنسجم مع كيانها الملىء الرزين . وقال عيسى لنفسه إن التعاسة تبدو قاسما مشتركا أعظم بين الناس جميعا فما أحقر المظاهر ، وتساءل عن السر الخفى المسئول عن هذا العبث . وقال أيضا إنه من حسن الحظ أننا نستطيع أن نخفى أفكارنا عن الآخرين ، وترى أى أفكار عنه تدور فى رأسها الصغير الغزير الشعر ؟، وهل تزعجها ــ مثلا ــ الأسباب الحقيقية التى أوجبت فصله من وظيفته ؟!.

وتذكر سلوى والجرح الذى حفرته فى قلبه فازداد تنغيصا ، وتذكر ريرى أيضا فقطب بمرارة ودهمته لحظة سوداوية فشعر بتفاهته إلى غير حد . ولذلك ذكر كيف كانت تزلزل الوزارة وهو يغادر صباحا السيارة الشيفروليه الحكومية ، وذكر أيضا يوم أراد أن يرشح نفسه فى دائرة الوايلى فنصحه عبد الحليم باشا شكرى بتأجيل ذلك إلى انتخابات قادمة لاعتقاده بأنه سيرشح عما قريب وكيلا لوزارته !

وفاجأه الراديو يوما بقرار تأميم شركة قناة السويس .! ارتفعت حرارة

اهتمامه الخامد لدرجة الغليان . لهث فى لهفة كأيام زمان . وما لبث أن أغرقه مد الحماس الذى اجتاح الجميع . وافتقد بألم شديد الأصدقاء الغائبين لحاجته إلى تبادل الرأى معهم . واعترف بذهول أنه عمل كبير حقا لدرجة أنه لا يصدق . بذلك أقر عقله . أما قلبه فغاص فى صدره كالمريض وأكله الحسد . إنه يذعر كلما قامت قمة فى الحاضر تضاهى القمم التاريخية التى يعيش على ذكراها . وشعر بألم التمزق فى منطقة الجذب والشد الفاصلة بين شطرى شخصيته المنقسمة . وتساءل عن العواقب . وحاول أن يسأل نفسه عن موقفه بين هذه العواقب وسرعان ما هرب من معركته الداخلية بإشراك زوجه وأمها فى الحدث ولكنه لم يجد له صدى فى نفسهما فهرع إلى الفريجدير ليتناول بضع كاسات مريحة !

وعاد إلى القاهرة فى منتصف سبتمبر متخم الحواس قد زاد وزنه زيادة ملحوظة . وكان يمر أمام بيته القديم وهو فى طريقه إلى مسكنه الجديد بالدقى فتنثال عليه الذكريات الحزينة . وراح يتبادل الزيارات مع أصحابه وقد كان لكل منهم زوجة شابة متعلمة ولكن قدرية احتلت بينهم مكانا مرموقا لجاهها ومالها . ولما سأله سمير عبد الباقى :

ـ وكيف وجدت الزواج ؟

أجاب بعد تأمل دبلوماسى :

ـ عال ، ولكن .

ـ ولكن ؟!

ـ ولكن أشك فى أن إنسانا يهضمه بلا عمل وبلا أطفال .

وهجم اليهود على سينا ، بذلك لطمته الصحف ذات صباح وزلزله الخبر . وجالس الراديو يتابع الأنباء بانتباه منصهر . انفعل بالنبأ لحد الهذيان . ودار رأسه بالأفكار حتى أصابه الدوار . أجل تأرجح مصير الثورة فى الميزان ولكن انفجر شعوره الوطنى فطغى على كل شىء . غضب الغضبة الجديرة بالوطنى القديم

الذى كاد يدركه الموت . الوطنى القديم الذى تعذب بالرغم من تلوثه من أجل مصر . تشبثت قدماه بحافة الهاوية التى تهدد وطنه بالضياع . وأبعد عن ذكره الثورة ومصيرها ليحتفظ بمشاعره فى أوج انفعالها . ومحا بقوة إرادته المشاعر المتناقضة التى تدب تحت تيار وعيه المتدفق . وحانت منه التفاتة إلى زوجه فهاله عدم اكتراثها وانكبابها على روتين حياتها اليومية . ولم تخرج عن ذلك إلا حين تساءلت بازدراء :

ـ حرب وغارات مرة أخرى !؟

ورأى الأمر دعابة فأحب أن يعابثها ليروح عن نفسه ، قال :

ـ أنت مهتمة جدا بإعداد الطعام ، خبرينى عن حال الدنيا لو فعل كل إنسان مثلك ؟

فقالت ببساطة :

ـ كانت تبطل الحروب ؟

فضحك رغم همه وغمه وقال مدفوعا بالرغبة فى الدعابة :

ـ أنت يا قدرية لا تهتمين بالشئون العامة ، أعنى الناس والوطن ..

ـ حسبى اهتمامى بك وببيتك !

ـ ألا تحبين مصر ؟

ـ طبعا .

ـ ألا تودين أن ينتصر جيشنا ؟

ـ طبعا ليعود الأمان إلينا ..

ـ ولكن ألا تحبين أن تشغلى عقلك به ؟

ـ عندى ما يكفينى من المشاغل ..

ـ خبرينى عن مشاعرك لو كان مقصد اليهود أن يستولوا على أملاك الست الوالدة ؟

فضحكت قائلة :

ـ يا خبر أسود !، وهل قتلنا لهم قتيلا ؟!

ووجد فى ذلك كله مزاحا يخفف من حدة مشاعره المتوترة ، ورغم تجهم اليوم ذهبا لزيارة عنايات هانم فى السكاكينى فتناولا عندها الغداء ثم غادرا البيت قبيل المغرب . ووقفا فى الميدان يتصيدان تاكسى عندما انطلقت زمارة الإنذار . وشدت بيدها على ذراعه وهمست بصوت متهدج :

ـ لنرجع ..

عادا إلى العمارة ، وهما يرقيان السلم انطلق مدفع مضاد فارتعدت كما دق قلبه بعنف . واجتمعوا فى حجرة مغلقة الشيش ، وراحت عنايات هانم تقول محتجة :

ـ ضاع العمر من حرب لحرب ، صفارات إنذار وقنابل مدافع وقنابل طيارات ، ألا يحسن أن نبحث لنا عن مأوى غير هذه الأرض ؟!

ولبثوا فى الظلام بحلوق جافة . ودوت أربعة مدافع متباعدة ، وعادت الأم تقول :

ـ سيدخل هذا الجيل الجنة بغير حساب !

وساءل عيسى نفسه فى حيرة حقيقية كيف تجرأ اليهود على مهاجمة مصر بعد أن صنعت لنفسها جيشا قويا بكل معنى الكلمة !؟

٢٣

وهرع إلى البوديجا مساء اليوم التالى ممتلئ الرأس بأخبار الصحف المطمئنة والمشجعة . وتقاربت رءوسهم حول مائدة على الطوار فى جو بديع حقا . تلاصقت أنفسهم بفعل قوة حارة عميقة يؤرقها الشعور بالخطر والأمل . وجعل إبراهيم خيرت يشب بقامته القصيرة وهو يتساءل فى انفعال :

ـ أتحسبون أن إسرائيل تقدم على هذه الخطوة وحدها ؟

وتبادلوا نظرات غريبة نطقت فيها بواطنهم كأنما تذهلهم سكرة ، فعاد إبراهيم خيرت يقول :

ـ وراء إسرائيل تلبد فرنسا وإنجلترا وأمريكا !

وتساءل عيسى فى جزع كيف يحدد موقفه وسط هذه العواصف من الأفكار والعواطف ؟!

وقال سمير عبد الباقى :

ـ يبدو أن جيشنا سيقضى عليها قبل أن يعلن حلفاؤها عن أنفسهم ..

ندت ضحكات ساخرة وكان المساء يهبط بالهدوء والخفاء وأخفض إبراهيم خيرت من صوته وهو يقول :

ـ الآن وضح الأمر فهى النهاية !

وتشربت قلوبهم المعنى المقصود بفرحة عصبية لم تخل عند البعض من شعور بالإثم . ورفع عباس صديق فاه عن النارجيلة وقال وعيناه الجاحظتان تلمعان بشدة :

ـ هم أيضا وراءهم من يسندهم !

فقال إبراهيم خيرت بازدراء :

ــ لا يوجد مجنون يفكر جادا فى إشعال حرب عالمية من أجل نقطة لا تكاد ترى فوق خريطة العالم .

وجد عيسى فى مشاعرهم تعبيرا سافرا عن جانب من نفسه فقرر أن ينطق الجانب الآخر ، فقال :

ــ أتودون حقا أن يهزمنا اليهود ؟

فقال إبراهيم خيرت :

ــ سوف تكون هزيمة سطحية تخلصنا من جيش الاحتلال الجديد ثم تجبر إسرائيل على التراجع وربما الاكتفاء بالاستيلاء على سينا وعقد صلح مع العرب ، ثم تتدخل انجلترا وفرنسا لتسوية المسائل المعلقة بالشرق الأوسط وإعادة الحالة فى مصر إلى طبيعتها .

فتساءل عيسى :

ــ ألا يعنى هذا الرجوع إلى النفوذ الغربى ؟!

ــ هو على أى حال خير مما نحن فيه ..

وقال عيسى وكأنما يخاطب نفسه :

ــ أى مصيدة وقعنا فيها !، إنه التخبط والتمزق والعذاب ، إما أن نخون الوطن أو نخون أنفسنا ، ولكن الهزيمة فى هذه المعركة تعنى بالنسبة لى شيئا هو أفظع من الموت ..

فقال عباس صديق :

ــ أنت رومانتيكى جدا ..

وقال إبراهيم خيرت :

ــ علام تحزن ؟، لم يبق ما نحزن عليه . وفى نظر الميت تعد أى حياة خيرا من الموت ..

فقال عيسى :

ــ أحيانا أقول لنفسى إن الموت أهون من الرجوع إلى الوراء ، وأحيانا أقول

لنفسى لئن نبقى بلا دور فى بلد له دور خير من أن يكون لنا دور فى بلد لا دور له ..

فقال إبراهيم خيرت باسما :

ــ إنك باعترافك منقسم الشخصية ، ونحن لا يهمنا رأى القسم المتكلم وحسبنا رأى القسم الصامت :

وضحكوا عاليا والليل يجثم . ثم التفت إبراهيم خيرت إلى سمير عبد الباقى بنظرة تحثه على الخروج من صمته فقال :

ــ أود أن يعيش كل مواطن متمتعا بالكرامة البشرية .

فقال إبراهيم خيرت :

ــ إذن فأنت من رأينا ؟

فقال باختصار :

ــ كلمتى تحمل معنى أعمق !

ــ إذن فأنت تعارض رأينا ؟

فعاد يقول :

ــ كلمتى تحمل معنى أعمق !

وغاص عيسى فى نفسه القلقة . يجب أن ينصره شطره المتكلم على شطره الصامت ، وأن يحتقر المهاجمين بلا حياء إعرابا عن احتقاره لشطره الصامت . ماذا أدى بنا إلى هذه الحال المحزنة حقا ؟. وألا من سبيل إلى نسيان الهزائم الشخصية ؟. إن المرض متفش فى الوطن . ودوت صفارة الإنذار كأنها جدار انقض عليهم بغتة . واختفى النور من الدنيا . وشملت الطريق حركة فرار فى الظلام . واقترح سمير أن يدخلوا القهوة ولكن الفكرة لم تلق تشجيعا من أحد . وتذكر عيسى زوجته فى وحدتها بالدقى مع أم شلبى فأشفق عليها . وإذا بأصوات انفجارات بعيدة تتابعت بغزارة فبعثت الرعب فى نفوسهم . وفى لحظة قصيرة أسرعوا إلى ركنهم الشتوى داخل المقهى . ثم توالى الضرب البعيد فى نظام مخيف . واختلطت التخمينات عن الأماكن التى ينهال عليها ، شبرا ؟



... وجاء رجل من الخارج مهرولا وهو يقول
ـ طيارات بريطانية التى تقذف بالقنابل

مصر الجديدة ؟، حلوان ؟.

ـ من أين لليهود بهذه القوة ؟

ـ وأين طياراتنا ؟!

ولم يتوقف الضرب مما قطع بقيام غارة حقيقية لعل البلاد لم تشهد مثلها طيلة أيام الحرب العالمية فاضطربت الأعصاب أيما اضطراب . وجاء رجل من الخارج مهرولا وهو يقول بصوت سمعته القهوة المظلمة :

ـ طيارات بريطانية التى تقذف بالقنابل !

فهتفت عشرات الحناجر :

ـ غير معقول !

فأكد الخبر قائلا :

ـ سمعت هذا من محطة الشرق الأدنى .

وانفجرت التعليقات فى شبه هلوسة . ثم سكت الضرب . ومضت دقائق توقع فى صمت ورهبة . ثم انطلقت صفارة الأمان واستردوا أنفسهم من قبضة التوتر وتبادلوا فى الضوء العائد نظرات ذابلة كأنها ترى بعد نعاس طويل . وفاضلوا بين البقاء والذهاب ولكن صفارة الإنذار لم تمهلهم طويلا فعادت تعوى من جديد . وما لبثت الانفجارات أن تتابعت حتى همس إبراهيم خيرت :

ـ الظاهر أن النهاية أقرب مما نتصور .

فهمس سمير عبد الباقى :

ـ ادع الله ألا نكون ضمن النهاية !

وبعد ساعة من العذاب انطلقت صفارة الأمان فسرعان ما غادروا القهوة . واستقلوا سيارة إبراهيم خيرت . وما كادت السيارة تصل إلى جسر أبى العلاء حتى دوت زمارة الإنذار الثالثة فتوقفت السيارة قرب الطوار . ولم يكن هنالك مخابئ فقد فضلوا البقاء فى السيارة . وقال إبراهيم خيرت وهو يضحك ضحكة عصبية :

ـ يجب أن نعيش إذ أن أسعار حياتنا آخذة فى الصعود !

وبعد حوالى الساعة انطلقت صفارة الأمان فأسرعت الفورد بهم عبر الجسر ، ثم عبرت جسر الزمالك مائلة إلى شارع النيل ، وعند أوله دوت صفارة الإنذار الرابعة فوقفت السيارة لصق أرض فضاء . وتوالى الضرب بشدة ، وقال عيسى ليطمئن نفسه :

ــ لعلهم يضربون الأهداف !

فقال سمير فى إشفاق :

ــ وربما جاء دور الضرب الأعمى !

فقال عباس صديق بصوت كأنما قد أصيب بشظية :

ــ إن ضرب المدنيين مسئولية خطيرة قبل العالم !

فقال إبراهيم خيرت :

ــ جميل جدا أن نطمئن أنفسنا !

ودوت صفارة الأمان بعد نصف ساعة فانطلقت السيارة بأقصى سرعة لعلها توصلهم قبل أن تدركهم الصفارة التالية ..

٢٤

سماء القاهرة معبر للطيارات ليل نهار . وأعجب شىء أن الحياة اليومية واصلت مألوفها فى البيت والديوان والدكان والسوق بالرغم من أن أزيز الطيارات لا ينقطع ، ولا تسكت الانفجارات . ورددت الخواطر أن القنابل لا تسقط جزافا ولكن همسات كثيرة جرت بأنباء الضحايا . ولم يغير الناس من سلوكهم المألوف ولكن الموت أطل عليهم من نافذة قريبة وتطايرت نذره إلى آذانهم فاقتحم الأفكار والقلوب . وانقلبت القاهرة إلى معسكر واخترقت شوارعها قوافل من العربات المصفحة واللوريات فغرقت الحياة العادية فى بحر من الظنون والهواجس .

وانتقلت عنايات هانم لتعيش مع ابنتها فى الدقى حتى تستقر الأمور . وفى الليل بدت الدنيا كما كانت تبدو قبل التاريخ ، فانكمشوا فى البيت حول الراديو ، يستمدون الرى لجفاف حلوقهم من أصوات المذيعين والأناشيد الوطنية .

وباتت الانفجارات والمدافع المضادة كنداء الباعة حتى زاغ بصر الأم العجوز وبهت لون عينيها ، وقبضت راحتها على المسبحة كأنها مانعة صواعق . ولم تكن قدرية دون أمها تهافتا ، ولم تنفعها بدانتها ، أما عيناها الناعستان فقد تولى عنهما جلال الخمول . ومناقشات هيئة الأمم ومجلس الأمن تنفذ من الراديو كالهواء للمختنق . وأساطير بورسعيد تتلى والقلوب تتوجع . وفى حال من أحوال الذعر تساءلت قدرية :

ــ هل نحن كفء للإنجليز والفرنسيين ؟

فأجاب عيسى بوجوم :

ــ بورسعيد تقوم والعالم ثائر !

ــ هم يتكلمون ونحن نضرب !

ــ نعم ، وما العمل ؟

فهتفت بنرفزة :

ــ لكن لا بد أنه يوجد حل ، أى حل ، وإلا تحطمت أعصابى ..

وأعصابه أيضا على أبواب التلف . الحزن والظلام والسجن . وألهمه الظلام بالاندفاع نحو أمل النصر . أشياء كثيرة ذابت فى الظلمة فنسى الماضى والمستقبل وتركز فى نشدان النصر . ولعل تعذر مغادرة البيت ليلا أتاح له فرصة أكبر لتأمل الموقف وللتشبع بالخطر ، والحنين للنصر ، وإسكات شطره الخفى ، فتحرك فى أعماقه نبع للحماس أوشك أن يدفعه إلى التضحية . وعند تسكعه نهارا قرأ فى مئات الوجوه مشاعر كالتى تشده إلى الحياة رغم الغبار والفناء وشائعات الأنانية . أمسى كالغريق لا يفكر إلا فى النجاة ، وخيل إليه أن الحاجز القائم بينه وبين الثورة يذوب بسرعة لم تخطر ببال من قبل .

وزاره إبراهيم خيرت عصر يوم فى طريقه إلى مكتبه فى المدينة . بدا شديد الثقة بنفسه ، جادا ، وقال :

ــ إن هى إلا ساعات ثم تنتهى المأساة !

فحدجه بنظرة ذاهلة من عينيه المستديرتين فقال الآخر مقطبا بدافع من إحساس بالسيادة :

ــ بعض رجالنا يقابلون المسئولين فى هذه اللحظة ليقنعوهم بالتسليم لإنقاذ ما يمكن إنقاذه !

خيل إليه أنه يرى موكب المندوب السامى كما كان يراه فى الماضى ، وتساءل :

ــ ماذا سيبقى ليمكن إنقاذه ؟

ــ لا تغال فى التشاؤم ..

ثم استدرك حانقا :

ــ أتعس الناس الذين يستوى لديهم الموت والحياة ..

فقال عيسى فى غم :

ــ كأشباح الكابوس ..

فقال إبراهيم خيرت بحدة :

ــ نحن فى حال تهون معها الهزيمة ..

ــ سنتعب كثيرا إذا حاولنا إحصاء متاعب البشر ، وإنى لأتساءل هل الحياة صالحة حقا للبشر ؟

فهز إبراهيم خيرت منكبيه فى استهانة فعاد الآخر يقول :

ــ ربما كان التعلق بالحياة رغم آلامها نوعا من الحماقة ، ولكن ما دمنا أحياء فيجب أن نحارب كافة السخافات بلا توان ..

فسأله إبراهيم خيرت :

ــ خبرنى هل تغيرت حقا ؟

فلم يجب بحرف ، ودلت تقلصات وجهه على منتهى القرف .

ولكن بارتفاع الأزمة إلى ذروتها اندفعت إلى دوامتها عوامل جديدة . العالم أصدر قراره ، وتوالت الإنذارات ، وأجبر العدو على ازدراد كبريائه والإذعان لواقع لا قبل له به ، وانفجرت فرحة أقوى من أى قنبلة .

ورجعت إلى ركن البوديجا الحياة فاجتمع الصحاب . ابتسامة باهتة ونظرة خامدة عمياء لا ترى مستقبلا . وقال إبراهيم خيرت متهكما :

ــ ثمة أمل فى أن يزيد وزننا كالمحكوم عليهم بالإعدام !

ولوح عباس صديق بخرطوم النارجيلة قائلا :

ــ هذا حظ أندر مليون مرة من ربح الصفر فى الروليت ..

وحتى سمير عبد الباقى لم تخل عينه الخضراء من خيبة فى أعماقها . الأعجب من ذلك أن عيسى نفسه ــ بعد أن ابتل ريقه بالنصر ــ فسرعان ما تهاوى فى فتور عميق كتل من رماد . انقلب فكره إلى ذاته ، وغاص مرة أخرى فى الظلمات ..

٢٥

لكل إنسان عمل وهو بلا عمل . ولكل زوج ذرية وهو بلا ذرية . ولكل مواطن مستقر وهو منفى فى وطنه . وماذا بعد الدورات الهروبية المعادة ؟، تسكع فى الصباح ما بين قهوة وقهوة ، ومجلس البوديجا مساء المركز فى الاجترار ، وزيارات مملة فى محيط الأسرة ،.. ماذا بعد الدورات الهروبية المعادة ؟! ويعانى آلاما قاسية ،ووحشة ومللا ، ويتساءل فى جزع إلام تمتد هذه الحياة الكئيبة ؟!

ها هو جالس يتشمس وراء زجاج النافذة فى جو قارص البرودة بلا عمل وبلا أمل . وها هى قدرية عاكفة على قطعة من الكانفاه ، لم تعد تبدد له وحشة ، وبشعر مشعث وقسمات منتفخة أعلنت عن إهمال مألوف ، وقد ازدادت شحما ولحما ، ونطق وجهها الطبيعى بتنكره الحاسم لرواء الشباب .

واسترد نظرات الأسى من وجهها ليتصفح الجرائد ويقرأ العناوين . إذ لم يعد يهتم بالاطلاع على الأخبار ، ثم استسلم لحديث النفس . وما أكثر ما حدث نفسه فى الأعوام الأخيرة . ليست قدرية بالزوجة المطلوبة ، وستظل حسرته على سلوى حية فى القلب رغم موت حبها ، ولولا الخمر ما طاق الاستسلام إلى ذراعى قدرية ، ولولا اليأس ما احتمل التعريضات التى تطوقه بسبب ثروتها ، وهو نفسه يتألم كثيرا كلما تذكر أنها تنفق مالها على بيتها وأنه لا ينفق مليما من معاشه إلا على نفسه ، وحتى رصيده لم تنتفع به حياته الزوجية شيئا ، فماذا تعنى هذه البلطجة ؟!

ويوما أثبتت له أنها تفكر فيما وراء المائدة والكانفاه ، قالت :

ــ عيسى ، أنت تشرد كثيرا وتلوح فى وجهك الكآبة أحيانا ، وأنا أتألم لذلك جدا .

فأبدى أسفه لتألمها وقال :

ــ أنا بخير فلا تهتمى لذلك .

ــ ولكن هناك أسبابا تسىء إلى الرجل ؟

ــ مثال ذلك ؟

ــ أن يكون بلا عمل وهو قادر عليه .

فابتسم وهو متضايق جدا وقال :

ــ لعله يضايقك أن تجدى زوجك عاطلا !

فقالت بتوكيد :

ــ أنا لا يهمنى إلا أثر ذلك عليك أنت .

ــ وماذا تقترحين أن أعمل ؟

ــ أنت أدرى يا عزيزى ..

فقال ببساطة :

ــ لا توجد وظيفة خالية .

وضحكا بلا روح ألبتة ولكنها عادت تقول برجاء :

ــ فكر فى ذلك جديا ، أرجوك ..

وقال لنفسه إنها على حق ، وإن رأسها البليد لا يخلو أحيانا من فكرة صائبة ، وهو نفسه يؤمن بضرورة العمل ولكن ما بال همته خائرة ؟.. هل أصاب إرادته مرض ؟.. لِم لا يفتح مكتبا أو حتى يشارك فى مكتب ؟!

كان يفكر فى العمل ولكنه يعيش بلا عمل وبلا إقدام جدى على الخطوة المطلوبة . وكان على درجة من الطمأنينة برصيده ثم زاد من طمأنينته زواجه الدسم ، وفضلا عن ذلك فإن معاشه يتكفل بنثريات حياته اليومية فأذعن للكسل والكبرياء ، وتعزز نفوره الأبدى من أن يبدأ من أول الخط . وجرى وراء التسلية بأى سبيل سواء فى البيت أو الخارج فى رأس البر أو الإسكندرية ولم ينتبه باهتمام إلى مرور الأيام .

وقال له سمير عبد الباقى :

ــ وزنك يزيد باستمرار فانتبه لنفسك .

حقا إنه يكثر من الطعام والحلوى منه بصفة خاصة ولا تخلو وجبة له من كأس أو كأسين ، وقال :

ــ أعلم ذلك ، وسيقول الناس إن زوجتى تعلفنى بسخاء ..

فقال سمير بحياء :

ــ لم أفكر إلا فى صحتك ..

ــ نعم ، ولكننى أقرأ أحيانا فى أعين كثيرين ..

فقال سمير مقطبا :

ــ أنت وحدك المسئول عن ذلك بكسلك ، وإنى أتساءل فى دهشة أين عيسى زمان الذى كان يغادر الوزارة بعد منتصف الليل من كل يوم تقريبا ، فضلا عن نشاطه المأثور فى الحزب والنادى .؟

وأعلن المعلن يوما عن غزو الفضاء وافتتاح عصر جديد . استيقظ من سباته ودب الاهتمام فى روحه الخامدة . وعاد يقرأ الجريدة بشغف ويستمع إلى الراديو بيقظة . ووجد ركن البوديجا حديثا غير حديث الحسرات السياسية ومضغ الشائعات :

وعلق عباس صديق على ذلك قائلا :

ــ ما أجمل أن تطالعنا الصحف كل صباح بإثارة كهذه !

وقال إبراهيم خيرت بحقد :

ــ هذا بشير بأفول نجم الساسة فلينزلوا عن مكانتهم للعلماء وليذهبوا فى داهية .

وقال سمير عبد الباقى :

ــ آن لنا أن ننظر برجاء من جديد إلى السماء !

ورفع عيسى رأسه إلى سقف الحجرة كأنه يتطلع إلى السماء ، وتخيل

الكواكب والنجوم برغبة طفل فى الهرب الخيالى الساحر ، ثم تمتم :

ــ ما أجمل أن نهجر الأرض إلى الأبد .

ثم شاكيا :

ــ الأرض أمست مملة لدرجة المرض !

وتساءل ألا يمكن أن يؤكد انتسابه إلى الإنسان ويتناسى انتسابه الجبرى إلى هذا الوطن ؟! .

٢٦

وجمعهم الصيف على غير عادة فى رأس البر حتى عباس صديق مدمن الإسكندرية . وأعد إبراهيم خيرت فى عشته غرفة للقمار والشراب كانوا يرجعون إليها بعد الرياضة المألوفة على شاطئ النيل . ثم انضم إليهم الشيخ عبد التواب السلهوبى الذى تصادف وجوده بالمصيف . وانزلقت رجل عيسى إلى البوكر بسهولة جدا ، وبسبب القمار وما يدفع إليه من سهر حتى الفجر نشب أول خلاف جدى بينه وبين قدرية . ووجدها عند الخلاف عنيدة كالبغل ولكنه لم يبالها وأصر على سلوكه باستهتار . وعندما اتخذ مجلسه على المائدة سأله إبراهيم خيرت وهو يملأ له كأسه من الكونياك :

ـ كيف حال الشئون الداخلية ؟

فأجاب باقتضاب :

ـ قطران !

فقال عباس صديق :

ـ زوجاتنا أكثر تسامحا من قدرية هانم فالرقابة يجب أن تتوقف بعض الشىء فى منفى جميل كرأس البر ..

ونظر عيسى فى ورقه فبهره منظر زوج الآس فدخل الدور بقلب قوى ، ثم واتاه الحظ بزوج ثمانية فربح ستين قرشا حتى قال الشيخ عبد التواب السلهوبى باسما :

ـ واظب على الربح تتحسن شئونك الداخلية !

ولكن عباس صديق تداركه قائلا :

ـ حرمه لا يهمها المال ..



ووجدها عند الخلاف عنيدة كالبغل .. ولكنه لم يبالها وأصر على سلوكه باستهتار ..

ومع أن الملاحظة بدرت تلقائية إلا أن عيسى تألم لها كثيرا وبخاصة وأنه كان بصفة عامة سيئ الحظ على المائدة حتى اضطر إلى سحب مائة جنيه من فرع البنك لتعويض خسارته .

وسأل إبراهيم الشيخ السلهوبى عن عبد الحليم باشا شكرى فأجاب :

ــ سافر إلى الخارج فى الوقت المناسب وبالعذر المناسب ، ولن يعود طبعا .

فقال سمير عبد الباقى :

ــ الخارج ليس أفضل من الداخل وما أشبه صفحة السياسة الخارجية بصفحة الوفيات !

فقال عباس صديق :

ــ إذن فالعالم مهدد بالفناء حقا ..

فقال عيسى وهو يوزع الورق :

ــ هو مهدد بالفناء سواء بالحرب أو بالسلم !

فقال الشيخ السلهوبى ضاحكا :

ــ أنت لا تتفلسف إلا عندما تتدهور روحك إلى الحضيض فلعل طوفان حظك أن ينحسر ..

فلما خسر عيسى الدور رغم حوزة ثلاث عشرات قال للشيخ متغيظا :

ــ كلمة منك تنحس بلدا ..

فقال السلهوبى ضاحكا :

ــ كلام فارغ ، ها أنا ألاحق العهد الحاضر بكلماتى المباركة منذ مولده فماذا حصل له ؟!

وانهمك فى اللعب بمجامع روحه . واستمتع بالحرارة والحماس والأمل والاندماج فى حيوية فاترة . ونسى كل شىء حتى التاريخ نفسه ونحسه ، وعايش اللذة فى جنونها ، وتجمع على المائدة مبلغ لا يقل عن سبعة جنيهات . وتعلق أمله بفردة آس . وسحب ورقة فإذا الآس يضحك بين يديه بوجهه الأحمر . فول آس .

ولكن إبراهيم خيرت رمى بكاريه كالصاعقة . وسرت تقلصات عدة فى جهازه العصبى . كيوم أعلن حل الأحزاب . وتساءل ماذا تصنع زوجه فى هذه اللحظة ؟. هل يدور الكلام بينها وبين أمها ؟. لعل العجوز تقول لها رضينا بالهم والهم لا يرضى بنا . وستقول أيضا عاطل ومرفوت لسوء السمعة ولا يحمد ربنا . الويل لها إذا تحدته . امرأة مزواجة وعاقر . بحكم الطبيعة هى عاقر وبحكم السن . أنسيت أنك تكبرييننى بعشرة أعوام على الأقل !.

وانتبه من غيبوبته إلى حديث يستطرد فيه الشيخ السلهوبى قائلا :

ــ لذلك فنحن فى عصر مبادئ كالحال أيام الصراع بين الديانات الكبرى !

فتساءل سمير عبد الباقى :

ــ والأمم الصغيرة أى أمل لها فى الحياة إن لم تختلف الأمم الكبرى ؟

فقال الشيخ بيقين :

ــ الذرة هى الطوفان ، فإما توجه حقيقى لله ذى الجلال وإما الهلاك المبين !

وحاول عيسى أن يتذكر متى ارتطم بهذه الفكرة ، فكرة الطوفان من قبل ؟. ثم أهمل التذكر حين وجد بين يديه كاريه عشرات !. توثب لتعويض خسارة الليل الطويل . وفتح بخمسة وعشرين قرشا ليجرهم إلى الاشتراك فى الدور . ولكنهم انسحبوا تباعا لعقم الورق بين أيديهم . ودار رأسه . ثم كشف عن الكاريه السعيد .

وصاح إبراهيم خيرت :

ــ حظك فى الربح أسوأ منه فى الخسارة !

وقال الشيخ السلهوبى :

ــ أنت سعيد فى الحب بلا شك ..

وأوشك أن يثور . وقال لنفسه إن القمار يتحول فى النهاية إلى حمى مميتة . وبدأ يعمل حسابا للأزمة التى تتربص له فى البيت . وكف الجميع عن اللعب والفجر يقترب ..

وتساءل عباس صديق وهو ينهض قائما :

ـ ما طعم رأس البر بلا قمار ؟

وخرج عيسى إلى الطريق كشمعة لم يبق منها إلا عقب فتيلة . وسار عباس صديق وسمير عبد الباقى فى طريق ومضى هو بصحبة الشيخ عبد التواب فى طريق آخر . وهب هواء مشبع بالطل فى صمت خاشع .. وترددت أنفاس النوم السعيد فى ظلمة لا ضوء فيها إلا ضوء النجوم وهلال آخر الشهر الصاعد . ومن بعيد رجع الأفق هدير البحر .

وتأوه الشيخ عبد التواب متثائبا وهو يهتف « الله » ثم غمغم :

ـ ما أجمل هذه الساعة !

فضحك عيسى قائلا :

ـ وخاصة للرابحين !

فضحك الشيخ قائلا :

ـ لقد خرجت من السهرة لا على ولا لى ، عباس صديق هو نار الله الموقدة ..

ثم بعد هنيهة صمت :

ـ أنت مقامر خطير يا عيسى !

فقال بنبرة ذات معنى :

ـ لقد خسرنا رغم الكاريه الذى كان فى يدنا ..

وأدرك ما يعنيه فقال بحزن :

ـ هذا هو حال الدنيا ، هل نستحق ما حاق بنا ؟، فلنسلم بأن لنا أخطاءنا ولكن من يخلو من الأخطاء ؟، وكيف نسينا هذا الشعب المارق ؟، كيف نسى الذين عاملوه معاملة الأم الرءوم لابنها الوحيد ؟

وفاض الحزن بعيسى ، وسلست إرادة كبريائه فاستجابت نفسه لرغبة طارئة فى الاعتراف فقال :

ـ كنا حزب المثل الأعلى ، حزب التضحية والفداء ، حزب النزاهة المطلقة ، حزب « كلا ثم كلا » أمام كافة المغريات والتهديدات ، كنا كذلك حتى قبيل ١٩٣٦ ، فكيف أدركت روحنا الطاهرة الشيخوخة ؟، كيف تدهورنا رويدا رويدا حتى فقدنا جميل مزايانا ؟، وها نحن نقلب أيدينا فى الظلام يملؤنا الشجن والشعور بالإثم ، فواحسرتاه ..!

فقال الشيخ بإصرار :

ـ كنا خير الجميع حتى آخر لحظة .

فقال بقسوة موجهة فى الحقيقة إلى ذاته :

ـ هذا حكم نسبى لا ترتضيه طبائع الأشياء ، ولا تقتنع به الأمم المتوثبة للحياة ، فواحسرتاه !.

وودعه عند منعطف ، وجعل ينظر إليه وهو يسير متمهلا والهواء ينفخ فى جبته الفضفاضة . وقال لنفسه بحزن : بدأ حياته بالاعتقال فى طنطا ، قبض عليه الجنود الاستراليون وهو يهتف : « يحيا الوطن .. يحيا سعد » ثم انتهى عام ١٩٤٢ بالاتجار فى الوظائف الخالية ، كما انتهيت أنا بالرصيد رقم ٣٣١٢٣ ببنك مصر ..

وأجال بصره فى الكون ، الهلال الصاعد فى أبهى رواء والنجوم المتألقة واللانهائية المسيطرة على كل شىء ، ثم تساءل بصوت مسموع « خبرنى يا سيدى ما معنى هذا كله ؟. خبرنى فقد احتار دليلى ! » .

وضغط على جرس الباب فرن بقوة فى صمت الليل ، وانتظر مليا ثم أعاد الكرة . وانتظر ثم أعاد . وضغط على الجرس بإصرار مستمر ودون توقف ولا مجيب .

وقال بحنق إنها قررت ألا تفتح له الباب !

وضرب الأرض بقدمه ثم ولى الباب ظهره وذهب .

٢٧

بات ليلته عند إبراهيم خيرت ، ثم استأجر فى اليوم التالى حجرة بفندق جراند أوتيل على النيل . وعقب أسبوع اضطر إلى سحب مائة جنيه أخرى لتغطية خسائره المتتابعة ولمواجهة تكاليف الحياة اليومية . وذهبت زوجة إبراهيم خيرت بإيعاز من زوجها لزيارة قدرية للاعتذار لها عن الدور غير المقصود الذى لعبه إبراهيم فى نزاعها مع زوجها ، ثم حاولت الإصلاح ولكنها لم تلق استجابة .. وتمادى عيسى فى القمار بلا أدنى تقدير للعواقب . وقاطع سمير السهرة تقززا من حال التدهور التى آل إليها صاحبه ، وقال له سمير يوما :

ــ يجب أن تعيد النظر فى موقفك كله ..

كانا يجلسان فى كازينو سبرانو أمام البحر عند الظهيرة ، وهو الوقت الذى يستيقظ فيه عادة . وكان عيسى يتابع بعينيه المستديرتين جموع السابحات . وأهمل التعليق على صاحبه مستسلما للذة المتابعة ولما كرر الآخر قوله قال عيسى بنبرة اشتياق :

ــ كم أود أن أمارس تجربة لم تتح لى فى وقتها وهى أن أغازل فتاة جميلة وأتعرف بها ثم أخطبها وفى أثناء ذلك نتبادل الهدايا والمكالمات التليفونية والمواعيد ..

فسأله سمير :

ــ أتريد حقا أن تتزوج مرة أخرى ؟

فنظر إلى سحابة تسير ببطء راسمة صورة جمل ثم تساءل :

ــ انظر إلى هذه السحابة وخبرنى أمن الجائز أن تكون حياتنا قد خلقت كما خلقت هذه الصورة ؟

فابتسم سمير قائلا :

ــ حتى هذه الصورة الزائلة حتمية ونتيجة لمئات من عوامل الجو والطبيعة ، ولكن خبرنى أتريد أن تتزوج ؟

فضحك عيسى وأكمل الاسباتس وهو يقول :

ــ خاطرة حلم ليس إلا ، ما بال المتصوفين يصدقون كل شىء ؟

فقال سمير بضجر :

ــ إذن لنتحدث عن موقفك .

فقال بنبرة الروح نفسها :

ــ تصور أننى قابلت وأنا قادم من الفندق سامى باشا عبد الرحمن الحر الدستورى القديم ، أنا شخصيا شعرت نحوه بعطف ما لانتسابه معى إلى الجيل الزائل ، وتصافحنا ووقفنا نتكلم ، ومن عجب أن قال لى فى ختام حديثه « لولا سعد زغلول ما وصلنا إلى هذه الحال ! » .

وضحك سمير بقوة لفتت إليهما عشرات الأعين حولهما . وإذا بعيسى يقول بنبرة جديدة :

ــ أكبر خازوق شربته هو مؤخر الصداق ، العجوز الداهية بعيدة النظر !

فقال سمير بأسف :

ــ قدرية هانم ست معقولة جدا يا عيسى ، أنت فى حالة قمار جنونية .

فنفخ عيسى بضيق متمتما :

ــ الملل أجارك الله !

فربت سمير على يده قائلا :

ــ العمل .. العمل ، نصيحتى الأولى والأخيرة لك ..

وفى أول السهرة الليلية وعيسى منهمك فى اللعب جاءه سمير يدعوه للقيام معه لأمر هام عاجل .. وأراد عيسى أن يتجاهل الدعوة ويستمر فى اللعب ولكن سمير انتزعه من المائدة رغم احتجاجه الصاخب ، والاحتجاج الصامت المحدق به .

وفى عشة سمير وجد نفسه أمام إحسان زوجة سمير وقدرية زوجته التى

جلست على مقعد كبير خافضة الرأس . ورحبت به إحسان وأجلسته إلى جانبها على كنبة طويلة شبه مستديرة كثيرة الزخارف وهى تقول :

ــ نحن نشكر لك تفضلك بالحضور .

ثم وهى تشير إلى قدرية ضاحكة :

ــ أقدم لك قدرية هانم ، صديقة عزيزة وحرم رجل عظيم من المفقودين فى الحرب !

تجهم وجه عيسى ، واحمر وجه قدرية وابتلت رموش عينيها ، ولما لاحظ سمير ذلك قال :

ــ علامة طيبة تبشر بالخير ، ما قولك ؟

ولم تكف الألسنة عن الكلام لحظة واحدة وقالت إحسان :

ــ لكل مشكلة حل بلا جدال ..

وخاطب سمير قدرية وهو يبتسم :

ــ الأمور تعالج برفق ، زوجك رجل عنيد ، وقد تعرض فيما مضى لألوان من الإرهاب والتعذيب ولكنه لم يتحول عن رأى ..

وتساءلت قدرية :

ــ هل ترضيكم هذه الحال ؟.. تكلموا ..

وقدمت صينية فضية بقوالب الكاساتا وفطائر بلدية من السوق فكانت هدنة استمتعوا فيها بأكلة ظريفة ..

وقال سمير :

ــ الحق أن جميع البشر فى حاجة إلى جرعات من التصوف ، وبغير ذلك لا تصفو الحياة ..

فقال عيسى :

ــ نحن فى حاجة إلى أن نعود للحياة مرارا حتى نتقنها ..

فقالت قدرية وكانت تخاطبه لأول مرة :

ــ أرجو ألا تؤجل حسن معاملتك لى إلى حياة أخرى ..

فقال سمير وهو يمسح بطرف منديل مبلل بالماء نقطة من الفراولة الذائبة سقطت على ثنية بنطلونه عند الركبة :

ــ لنتكلم عن المستقبل ، أرجوكم .

فقالت قدرية :

ــ أنا مؤمنة بأنه لن ينقذه شىء من متاعبه سوى العمل ، وفى سبيل ذلك أنا مستعدة لأى تضحية !

فقال سمير :

ــ أوافقك كل الموافقة ، ولكن حتى ينفذ هذه الفكرة الوجيهة يجب أن يبتعد عن رأس البر ، حسبكما منها شهر أغسطس فاذهبا إلى الإسكندرية لإتمام التصييف هناك ، هذا ضرورى جدا وعاجل ..

فقالت قدرية :

ــ سنسافر غدا إذا وافق على ذلك ..

وقال سمير وهو يوصلهما إلى باب العشة الخارجى :

ــ وسوف تجد فى الإسكندرية متسعا للتفكير ، ولدى عودتك إلى القاهرة فى أكتوبر تبدأ العمل فورا ..

سارا جنبا إلى جنب فى طريق شبه خال ونصف القمر مرشوق فوق الأفق كابتسامة كونية فى سماء صافية . وخطر له خاطر وهو أن هذا الجمال المنتشر فى نظامه البديع ما هو إلا قوة مجهولة ساحرة تجبر الإنسان على الشعور بحدة تعاسته وفوضاها .

وغمغمت قدرية :

ــ اكتشفت أن عندى ضغط دم ، وأنت السبب !

ــ حقا ؟!

ـ نعم ، كشف على دكتور وكتب لى دواء ورجيما وسترى ذلك بنفسك !

وربت على ظهرها قائلا برقة بالغة :

ـ ستشفين سريعا بإذن الله ..

وشعر بأنه لا يتقدم خطوة فى طريق السعادة ..

زواج بلا حب ، حياة بلا أمل ، ومهما وفق إلى عمل فسيظل بلا عمل .

٢٨

سافرا إلى الإسكندرية وحدهما ، وبقيت الأم فى رأس البر . وأقاما أياما فى فندق اللوفر حتى عثر عيسى على شقة فى سيدى جابر بالدور السابع من عمارة مطلة على البحر ، وكان المصيف على وشك الوداع ، حف به صخب الشباب ، واستقبلت السماء أسراب السحائب البيضاء ، وتهيأ الجو للهدوء والتأمل . وقدرية بدت سعيدة حقا رغم توعكها ، وواظبت على العلاج والرجيم على ولعها المأثور بالطعام وقالت إذا كان ذلك سيخفف من وزنها فبها ونعمت . وتحمس عيسى للمشى وتجنب الدهنيات ما أمكن ليسترد رشاقته ، واتفق الرأى بينهما على أن يشرع فى العمل حال عودته إلى القاهرة . وقد استقر الرأى على فتح مكتب وإن لم يبد ارتياحه لذلك . قال :

ـ شد ما أتمنى حياة أخرى ..

فحملقت بعينيها البقريتين فى وجهه متسائلة فبادر يقول :

ـ لا تقلقى ، هذا مجرد حلم ، أود أن أعيش فى الريف بعيدا عن القاهرة فلا أراها إلا فى المناسبات ، وأن أقضى نهارى فى عملى بالحقل وليلى فى شرفة مطلقة على الفضاء والصمت ..

فقالت بقلق :

ـ ولكن لا علاقة لنا بالريف ..

ـ إنه مجرد حلم ..

ومرت الأيام فى ضجر ، ولم يجن من الشواطئ شبه الخالية إلا الوحشة وبخاصة وأن قدرية آثرت البقاء فى البيت أكثر الوقت بسبب صحتها . وكان يمشى حتى تكل قدماه ويجلس إذا جلس فى فردوس جليم تعلقا بالذكريات .

وقال لنفسه إن عصره قد انتهى وأنه لن يندمج فى الحياة مرة أخرى بنفس الحال التى كان عليها من قبل ، وأنه يرتبط بامرأة ليسرقها لا ليحبها . وتساءل متى يندثر العالم ؟. وتساءل أيضا ألا توجد أفكار من نوع آخر تفتح للصدر الحياة ..

ووجد أمامه رجلا من قراء الكف فى زى هندى ، يحدق فى وجهه بعينين براقتين وهو بمجلسه التقليدى بالفردوس . وبسط للرجل كفه فسحب هذا مقعدا وجلس أمامه وعكف فى الحال على قراءة خطوط راحته ، وراح ينتظر صوت الغيب فى استسلام باسم ، وارتفع صوت الرجل قائلا :

ــ عمرك طويل وستنجو من مرض خطير ..

ثم بعد تأمل :

ــ وستتزوج مرتين وتنجب ذرية ..

فانتبه باهتمام فاستطرد الرجل قائلا :

ــ وفى حياتك تقلبات كثيرة ولكن لا خوف عليك بفضل إرادتك الحديدية ، ولكنك ستتعرض لخطر الغرق فى البحر !

ــ البحر ؟!

ــ هكذا يقول الكف ، وأنت رجل طموح بلا هوادة وستجد دائما رزقك موفورا ولكن عصبيتك تفسد عليك صفو حياتك فى كثير من الأحايين ..

وقام الرجل وهو يحنى له رأسه تحية . وعندما هم بالابتعاد سأله بلا وعى :

ــ وما المخرج ؟

فالتفت إليه الرجل متسائلا فاستسخف عيسى نفسه ولوح له بيده شاكرا ..

وعند المساء مضى يتمشى على الكورنيش حتى بلغ كامب شيزار . وعند سلسلة من المقاهى والدكاكين ملتصقة بطول الطوار فى مهرجان من الأنوار وقعت عيناه على وجه ريرى ! توقف عن السير على الكورنيش وهو يحد بصره بانتباه الخائف فتوكد لديه أنها ريرى دون غيرها . جلست على كرسى المديرة أو المالكة وراء صندوق الماركات بمحل صغير لبيع الدندرمة وشطائر الفول

والطعمية ، وأسند ظهره إلى سور الكورنيش فى موضع بعيد عن الضوء وراح يمعن النظر فى وجهها بدهشة وهو لا يخلو من ضيق لذكرى سلوكه معها الذى دهمه بقسوة ونبوه عن الذوق . ريرى .. ريرى دون غيرها .. ولكنها لم تعد البنت الصغيرة ، كلا ، إنها امرأة بكل معنى الكلمة ، وذات شخصية يستشعرها النادل الذى يتحرك باستمرار بالطلبات بينها وبين الزبائن ، امرأة جادة ومديرة حقا . ومن عجب أن تمشى بهذه الناحية طوال عشرين يوما متتابعة دون أن يلتفت إلى هذا المحل الصغير الذى قرأ اسمه الآن بوضوح « خذواشكر » . وفى المرات القلائل التى صيف فيها فى الإسكندرية كان يتذكرها ويخاف فكرة مقابلتها سواء وحده أو مع زوجه وأصدقائه ولكنه لم ير لها أثرا حتى ظنها قد رحلت عن البلدة أو عن الدنيا جميعا . وكيف تأتى لها أن تجلس هذا المجلس ، وهل خمسة أعوام تكفى ــ بلا حرب عالمية ــ لبلوغ هذه الدرجة ؟، لا شك أن أبلتها فى الإبراهيمية تحسدها على هذا التقدم السريع الذى لا تحلم به قريناتها !، وقف فى شبه الظلام لا يحول عنها عينيه ، ويستحضر فى ذهنه علاقتهما القديمة التى طويت فى زوايا النسيان إلى الأبد ، ويتعجب من زيف العلاقات البشرية . وقال إننا نجرب الموت ــ ونحن لا ندرى ــ مرات ومرات فى أثناء حياتنا قبل أن يدركنا الموت النهائى . وما أشبه ريرى فى مجلسها بالمحل بالنادى السعدى حين يمر أمامه أحيانا أو بيبت الأمة ، جميعها حيوات قضى عليها بالموت المبكر ولا يجنى منها إلا الحسرات .

ودخلت المحل امرأة فى هيئة الخدم ممسكة بيمناها بنتا صغيرة ثم اتجهت إلى ريرى تحادثها باهتمام على حين وثبت الصغيرة إلى حجر ريرى وراحت تعبث بعقد يطوق عنقها بألفة واطمئنان . وعند ذاك خطر له خاطر دق له قلبه حتى غطى على هدير البحر وراء ظهره . وتصلب جسده وتركز فى الصغيرة حتى فقد الوعى بما حوله ، ولكن لا .. لا .. لِم تدور أفكاره فى هذا المدار ؟!. أى وهم سخيف ومخيف معا ! ووجه الصغيرة متوجه إلى أمها فلم يره . وقال لنفسه قد

تمر اللحظة بسلام وسيضحك من نفسه طويلا فيما بعد ولكن قد تزلزل الأرض وتخرب كل قائم . إذن فليهرب . لن يعود إلى كامب شيزار . لن يعود إلى الإسكندرية . ولكنه لم يتزحزح عن موقفه ذرة واحدة . كيف دهمته هذه الأفكار السخيفة ؟!

وتخلصت ريرى من البنت فقبلتها وأنزلتها إلى الأرض فتناولت الخادم يدها ومضت بها خارج المحل مائلة إلى شارع جانبى يصعد إلى الداخل . وبدل أن يهرب عبر الطريق نحو الشارع الجانبى وهو يوسع خطاه حتى كاد أن يلحق بالخادم والصغيرة . وارتفع صوت البنت بكلمات غير مفهومة أو لم يفهم منها سوى كلمة « شيكولاطة » فى نبرة كزقزقة العصافير ووقفا أمام دكان لبيع الحلوى واللعب عند منعطف الطريق المقاطع فاتخذ مكانه إلى جانبهما تحت ضوء ساطع وطلب علبة سجائر وراح يلتهم وجه البنت بغرابة ونهم . ألا يستوى هذا الوجه على هيئة مثلث ؟. والعينان المستديرتان ؟. إن ملامح من أمه وأخواته الثلاث يختلطن فى صفحته . ويغبن ثم يظهرن . أهو وهم ؟.. أهو الخوف ؟.. أهى الحقيقة ؟.. إنه يكاد يسقط إعياء !. خفق بسرعة باعثا موجات من الدهشة والتقزز والرهبة والحزن ، والحنان والرغبة فى الموت ..

وذهبت بها الخادم إلى عمارة قائمة أمام الدكان فى جانب الطريق الآخر فظل يتبعهما عينيه حتى اختفتا . ونظر إلى السماء وهو يتنفس بصعوبة ثم تمتم « الرحمة .. الرحمة .. » .

٢٩

وجلس فى قهوة النسر وهى المجاورة لمحل ريرى متجنبا مجال عينيها . وأسف كثيرا لأنه لم يحدث الخادم ولا الصغيرة ولم يخرج لحظة عن الشلل الذى دهمه . ثم أليست الطفلة لطيفة ونشيطة وخفيفة وسنها متوافق جدا مع ذلك التاريخ المحزن ؟. وما عسى أن يفعل الآن ؟ لا يجوز أن يؤجل الجواب ، ماضيه يزداد مقتا وما أبغض فكرة الرجوع إلى قدرية . وقد عدل بصفة حاسمة عن التفكير فى الهرب . ولقد اعتاد أن يهرب مرات فى اليوم الواحد ولكنه لن يهرب أمام هذه الحقيقة الجديدة التى اجتاحت مستنقع حياته الراكدة فتفجر عن ينابيع حارة . لعلها دعوة أخيرة يائسة إلى حياة ذات معنى . معنى فى حياة أعياه أن يجد لها معنى . لن يهرب ، وليس فى مقدوره أن يهرب وسيواجه الحقيقة بوجه متحد ، وبأى ثمن ، أجل بأى ثمن ، وسيرحب بذلك أيما ترحيب . ولن يعجز قدرية أن تجد لها رجلا آخر ليعيش فى كنفها ، حق انها تستحق العطف ولكن حياته الكاذبة معها لا تستحق عطفا . عبث أن يواصل حياة كاذبة يجتر فيها أوهاما ماضية ولا مستقبل لها . إن قلبه لا يخفق بحب شيء وها هى فرصة سانحة لكى يخفق حتى الموت ، والبنت ابنته ، وسيعرف اليقين بعد دقائق ، ولن يقضى عليها باليتم الذى قضى التاريخ به عليه . وسوف تنفجر بها فى حياته قنبلة من التعليقات والأقاويل والظنون ، ويمسى مضغة فى الأفواه ، لكنه سيصمد للمحنة ، ويتألم ، ويكفر ، ثم يحيا ، وأخيرا سيجد للحياة معنى . وإذا تيسر له أن ينضم إلى أسرته الحقيقية فسيبقى فى الإسكندرية ويستثمر ماله فى المحل الصغير ويبدأ حياة جديدة . افترس الخجل والكبرياء والعناد وواجه الحياة بشجاعة .

انتظر حتى فات الليل منتصفه ، وخلا الكورنيش أو كاد ، وولى الجالسون ،

وآنس فى محل ريرى حركة شاملة تنذر بالنهاية فغادر مجلسه إلى الشارع الجانبى الصاعد إلى الداخل ووقف عند المنعطف المواجه للعمارة . وظهر شبح فى أول الطريق الصاعدة ، ها هى ريرى قادمة . وتقدم خطوة إلى ما تحت المصباح لتتجلى معالمه . واقتربت منه ولكنها لم تلق إلى الواقف بالا . لم تعد تعبأ بالمتسكعين وهذا حسن جدا . وعندما شرعت فى المرور به قال بصوت رقيق متهدج :

ـ ريرى !

التفتت نحوه متوقفة عن السير وهى تتساءل :

ـ من ؟

اقترب منها خطوة وهى تتفحصه دون أن يبين فى وجهها أى انفعال حتى قال فى قلق :

ـ أنا عيسى .

تبدو حقا قوية ومحتشمة وجذابة . ولا شك أنها تذكرته فهكذا تقول الدهشة والتقطيب واختلاج الشفتين والتقزز . وهمت بالسير فاعترضَ سبيلها فهتفت بغضب :

ـ من أنت ؟.. وماذا تريد ؟

ـ أنا عيسى كما تعلمين !

فقالت بحدة وهى تعانى شتى الانفعالات :

ـ أنا لا أعرفك ..

فقال بحرارة :

ـ بل تعرفيننى .. لا داعى للإنكار ؟

ثم مستدركا بنفس الحرارة :

ـ لا أمل عندى فى قبول أى عذر ولكن لدينا ما نتحدث عنه ..

ـ أنا لا أعرف ودعنى أمر ..



.. ابعد عن وجهى ، أنت أعمى ومجنون ، ويجب أن تختفى !

فقال يائسا :

ــ يجب أن نتحدث ، هذا أمر لا بدّ منه ، وأنا أتعس مما تتصورين !

فقالت بغضب :

ــ اذهب .. اختف .. هذا خير ما تفعل ..

ــ ولكنى أكاد أجن ، من الطفلة يا ريرى ؟!

ــ أى طفلة !.

ــ الطفلة التى جلست على حجرك منذ ساعات ثم دخلت هذه العمارة مع خادمتها ، رأيتك مصادفة ، ثم رأيتها . وتبعتها حتى دخلت العمارة . أؤكد لك أننى أتعس مما تتصورين ..

فقالت بإصرار :

ــ لا أدرى شيئا عما تتحدث عنه . اذهب ، فهذا خير ما تفعل .

ــ إنى أكاد أجن ، يجب أن تتكلمى ، هى ابنتى يا ريرى . يجب أن تتكلمى ..

فصاحت به فى الشارع الصامت :

ــ ابعد عن وجهى ، أنت أعمى ومجنون ، ويجب أن تختفى ..

ــ ولكن قلبى حدثنى بكل شىء ..

ــ إنه كذاب مثلك ، هذا كل ما فى الأمر ..

ــ لا بد أن تتكلمى ، الجنون يعصف برأسى ، أنا أعلم مدى نذالتى ولكن يجب أن تتكلمى ، قولى إن البنت هى ابنتى ..

ــ ليس عندى ما أقوله لك سوى أن تذهب وأن تختفى ..

ــ أنا أعلم أننى أستحق عذاب الجحيم ، ولكن لدى فرصة لصنع شىء طيب فلا تضيعيها على ..

فصاحت به كالزوبعة :

ــ اذهب ولا ترنى وجهك ..

ــ ريرى ، أصغى إلى ، ألا ترين أننى سأطالبك بالكلام ولو مت موتا ..

٣٠

رجع إلى مسكنه قبيل الفجر بعد أن هام على وجهه طويلا فى الكورنيش ولا ثانى له . لم يسمع هدير البحر ولم ير نجما واحدا . ووجد قدرية ساهرة فى انتظاره على غاية من القلق والاستياء . أوشك أن يعترف لها بكل شىء ، ولو كان آنس من ريرى بادرة تشجيع واحدة لاعترف ، لكنه لم ير بدا من أن يقول لها إن مقاومة عادته السيئة تدفعه إلى التسكع على الكورنيش حتى الفجر . وقال لنفسه وهو يستلقى على الفراش : اللعنة .. اللعنة .. يجب أن تقتلع هذه الحياة الكاذبة من جذورها ، اما حياة جديدة أو لا مناص من الردة إلى القمار والكونياك وأحاديث العجائز بركن البوديجا .

وفى مساء اليوم التالى صحبها كارها إلى سينما ريو ثم تناولا العشاء فى تافرنا ثم أوصلها إلى البيت ثم مضى وهو يقول :

ــ نامى يا عزيزتى واشبعى نوما ودعينى أعالج نفسى ..

وحام طويلا حول محل ريرى وأمام العمارة لعله يرى الطفلة ولكنه لم يوفق فجلس فى قهوة النسر . ورغم فشل الأمس داعبه أمل غامض كنشوة اليأس فاعتقد أن كافة مشاكل العالم ستحل الليلة بلا عناء . ونظر إلى السماء المتوارية وراء ظلمات السحب وقال ان الخريف فى الإسكندرية روح من أرواح الجنة وهو مغسل لجميع الأحزان . وان جميع الأحزان ما هى إلا أوهام وان الموت هو حارس السعادة الأبدى وقال لنفسه بصوت مهموس :

ــ ما أجمل أن يسكر بلا خمر ..

وإذا بماسح أحذية يقف أمامه وهو يرمقه بنظرة استجداء . وقرأ فى نظرته أكثر من معنى فأشار إليه أن يجلس ثم سلم إليه قدميه . وأراد أن يتأكد من ظنه على

سبيل التسلية فسأله :

ــ هل توجد شقة خالية ؟

فابتسم قائلا :

ــ فى هذا الوقت الشقق أكثر من الهم على القلب ..

ــ أقصد غرفة خالية ؟

ــ فى بنسيون ؟

ــ أفضل أن تكون فى عائلة ..

ــ العائلات أيضا أكثر من الهم على القلب ..!

وضحك عيسى فى ارتياح ، وإذا بخاطر يخطر فأشار نحو محل ريرى متسائلا :

ــ ماذا عن صاحبة « خذ واشكر » ؟!

فتغيرت سحنة الرجل وقال بلهجة جادة :

ــ لا .. لا .. هذه ست بمعنى الكلمة .

فحدجه بنظرة كأنما تقول له « اطلع ! » فقال الرجل :

ــ لا تضع وقتك .. أنا لا شأن لى بها ..

ــ أنت لم تفهمنى فنظرة واحدة إليها تقنع بما تقول ، ولها طفلة لطيفة جدا ..

ــ نعم ، نعمات ، بنت حلال !

فابتسم عيسى متظاهرا بعدم الاكتراث ثم تساءل :

ــ ولكن أحدا لا يرى أباها أليست الست متزوجة ؟

ــ طبعا .. وزوجها هو صاحب المحل .

ــ وما له لا يدير محله بنفسه ؟

قال الرجل بعد تردد :

ــ فى السجن ولا مؤاخذة !

ــ لأى سبب ؟

ــ مخدرات .. مظلوم والله ..

ــ ربنا يفرج عنه ولكن أنت متأكد أنه والد الطفلة ؟

فلمعت فى عينيه نظرة حذر وقال :

ــ طبعا !

فقال عيسى بجرأة وثبات :

ــ كلا ..

ثم وهو يضحك :

ــ أنت تعرف الحقيقة وتنكرها أو أننى أعرف أكثر منك ..

ــ ماذا تعرف ؟

ــ أحب أن أسمع منك وإلا فكيف سنتعامل معا ما دمت تبدأ بالكذب على !

فقال باستسلام وهو يشبع الحذاء بالورنيش :

ــ يقال إنه كتبها باسمه فى شهادة الميلاد الرجل الطيب !

ــ ولكن لِم ؟

ــ عجوز وطيب ولا ولد له وأحب الست وتزوجها على سنة الله ورسوله !

فقال عيسى وهو يزدرد ريقه بصعوبة :

ــ رجل طيب حقا ولا يستحق السجن ..

ــ ولذلك فهى تعمل مكانه وتنتظره بصبر وإخلاص .

ــ يستحق ذلك وأكثر ..

وأعطاه عشرة قروش ، وأمله خيرا فيما سيأتى من أيام ..

وانتظر عقب منتصف الليل تحت المصباح ، ولما لمحته وهى آتية قطبت فى غضب وابتعدت عن موقفه ولكنه قال لها بتوسل :

ــ أنا منتظر ومعذب ولا بد أن نتكلم ..

وسارت دون أن تحييه فاعترض طريقها قائلا :

ــ هى ابنتى ، قولى لى ذلك على الأقل ..

قالت بحدة :

ــ سأنادى البوليس !

ــ هى ابنتى ! عرفت الحقيقية كلها ..

ــ سأنادى البوليس ، ألا تسمع ؟

ــ بل نادى الرحمة والصفح .

فهددته بسبابتها قائلة :

ــ أنت تستحق الحرق لا الصفح ..

ــ لنبحث عن طريقة لننسى الماضى كله .

ــ نسيته كله فاختف معه ..

ــ اسمعى يا ريرى ، أنت تنتظرين عبثا ، ستنالين حريتك ثم ..

فقاطعته صارخة :

ــ يا لك من وغد كما كنت دائما ، لا تتصور الخير أبدا .

تقبض وجهه من الألم ثم أن قائلا :

ــ الواقع أننى فى غاية من العذاب ..

فقالت بحدة قاسية :

ــ لا شأن لى بعذابك ..

ــ البنت ابنتى ولا علاقة لها بالرجل الذى فى السجن ..

قلبت عينيها فى وجهه بدهشة ثم سرعان ما استردت قوتها وهى تقول :

ــ هى ابنته ، تبناها بأخلاقه فملكها إلى الأبد ، وأنا مثلها ..

اشتد تقبض وجهه فقالت منذرة :

ــ احذر أن تلقانى بعد الآن : إنى احذرك ..

ــ يا ريرى أنت تغلقين باب الرحمة ..

ــ أنت الذى أغلقته فاذهب ..

قال بنبرة باكية :

ــ ابنتى ...

فصرخت وهى تندفع فى سبيلها :

ــ لست أبا ، أنت جبان ولا يمكن أن تكون أبا ..

٣١

وقف متواريا وراء ضلع كابين بساحل كامب شيزار يسترق النظر إلى أسرته الطبيعية ، كانت زيرى تجلس تحت مظلة شابكة ذراعيها على صدرها وعلى بعد أمتار منها عكفت نعمات الصغيرة على الرمال تحفر حفرة بدأب واهتمام . والصباح كان صحوا والشمس تغمر القلة المتفرقة على الساحل ، شمس ناعمة ملاطفة أضاءت جوا منعشا . توارى عن عينيها حتى لا تظن بمقدمه الظنون ، وذابت روحه فى نظرته المركزة على الطفلة يود أن يقبلها قبلة حارة ثم يذهب إلى الأبد . جسمها صغير لكنه متناسق . ويرسم هيئة امرأة بصورة مصغرة . وساقاها الملونتان بالشمس وفخذها وشعرها المرسل المبتل الأهداب وضلعاها البارزان العاريان ولبس البحر النصف برتقالى وانهماكها الشديد ، وكل أولئك بديع جميل وهى سعيدة حقا . هى ثمرة الملل من ناحيته والخوف من ناحية أمها ولكن الحياة قد خلقت من هاتين الصفتين المرذولتين مخلوقة جذابة مفعمة بالصحة والهناء . هكذا اقتضت إرادة القوة الخفية وهكذا انهارت العراقيل أمام الوثبة الأبدية الغامضة . هذه الصغيرة شاهد على سخف كثير من المخاوف ، شاهد الطبيعة عندما تضرب لنا المثل على إمكان التغلب على المفاسد . الآن ألا تستطيع أن تقلد الطبيعة ولو مرة ؟. ألا تستطيع أن تخلق من أحزانك وخسائرك وهزائمك نصرا ولو بسيطا ؟. وما هو بالنادر ولا بالجديد فهذا البحر الذى احتفظ بصورته ملايين السنين قد شهد أمثلة على ذلك لا حصر لها ، كذلك هذه السماء الزرقاء الصافية .

وأخيرا خرج من مكمنه نحو الطفلة غير مبال بقومة ريرى المتحفزة ، وهوى نحوها فطبع على خدها ــ رغم انزعاجها للمباغتة ــ قبلة حارة طويلة ثم ذهب

مغمغما « الوداع » ولم يلتفت وراءه مرة واحدة .

وعندما جاء وقت الغداء لم يجد رغبة فى الرجوع إلى البيت فتناول غداءه فى « على كيفك » . وذهب إلى سينما الساعة الثالثة ، ثم دخل سينما أخرى الساعة السادسة ، ثم عاد إلى « على كيفك » ليتناول العشاء ويشرب الكونياك . وطال المجلس فانتشى رأسه بنفثات الخمر وهو يتسلى بالنظر والأحلام . وقبيل منتصف الليل رأى شخصا قادما نحو المطعم جذب انتباهه فيما يشبه الصدمة الكهربائية . فارع الطول مفتول العضل داكن السمرة ، يرتدى بنطلونا رماديا وقميصا أبيض يكشف عن ساعديه ، وبين أصبعى يسراه وردة حمراء . اقترب خطوات قوية رشيقة تلمع فى عينيه نظرة جريئة نافذة . التقت عيناهما وهو يدخل المحل فحدجه القادم بنظرة قوية أدرك منها أنه تذكره ثم حول عنه وجهه المستطيل المتناسق وهو يكاد يبتسم ثم مضى نحو ركن عصير الفاكهة ، هو هو دون غيره ، أيام الحرب الكالحة ، ليلة قبض على الشاب فشهد هو التحقيق معه ــ بصفته الرسمية والحزبية ــ حتى مطلع الفجر . وكان الشاب جريئا وعنيفا ولم ينته التحقيق معه إلى إدانة ولكنه أرسل إلى المعتقل ولبث فيه حتى إقالة الوزارة . ترى ماذا يفعل الآن ؟، وهل يحظى فى العهد الجديد بمنزلة سامية ؟ أم لا يزال ثائرا ؟ ولم يبتسم ؟ ومن المؤكد أنه تذكره فهل يتوقع من ناحيته مفاجأة سيئة ؟. وقرر أن يطرده عن خاطره ولكنه التفت نحو ركن الفاكهة بدافع لم يستطع مقاومته فرآه واقفا متجها إلى داخل المحل قابضا على كوب من عصير المانجو ، ويرنو إليه بنظرة استطلاع وتأمل وفى عينيه شبه ابتسامة ساخرة . وأعاد رأسه إلى الخارج وهو من الضيق فى غاية ، وكان الماضى من خلال هذه النظرة يطارده . وما لبث أن قام ثم غادر المحل ماضيا إلى الكورنيش رأسا . ولم يخطر له أن يعود إلى البيت ، بل وخيل إليه أنه لم يعد له بيت على الإطلاق ، ومال بعد مشية غير قصيرة إلى الميدان ثم جلس على أريكة تحت تمثال سعد زغلول . أغلب الأرائك خالية ، والهواء البارد فى غير قسوة يتجول فى الرحبة الفسيحة لاعبا بالنخيل ، والنجوم تومض فى القبة

الهائلة ، والليل راسخ كالأبدية ، ولم يكن قد نجا بعد من ذكريات الشاب الناشبة فى مخيلته ولكنه صمم على أن يرسم للمستقبل خطة . ولم يكد يستغرق فى أحلامه حتى شعر بشخص يجلس إلى جانبه فالتفت نحوه فى غيظ مكبوت فرأى الشاب المقتحم . واضطرب فى خوف ، وقال إنه لا شك قد تبعه خطوة فخطوة وأنه يضمر له شرا !. وتوثب للدفاع ولكنه خجل فى ذات الوقت من فكرة الانسحاب . وجاءه صوت حلقى يقول فى لطف :

ــ مساء الخير يا أستاذ عيسى ، أو صباح الخير فقد انتصف الليل منذ دقائق !

رمقه بنظرة باردة على ضوء غير قريب وقال :

ــ صباح الخير ، من حضرتك ؟!

ــ لا شك أنك تذكرنى !

فقال عيسى مصطنعا الدهشة :

ــ آسف جدا ، من حضرتك ؟!

فضحك ضحكة كأنها تقول « أنت عارف وأنا عارف » ثم قال :

ــ الخصم هو آخر من تنسى !

ــ لا أفهم شيئا !

ــ بل تذكر التحقيق الذى استمر حتى الصبح ، واعتقالى بعد ذلك ، حتى أنتم كنتم تعتقلون الأحرار ويا للأسف !..

فقال عيسى بنبرة متقهقرة :

ــ لا أدرى عما تتحدث بالضبط ولكنى أذكر أيام الحرب بلا شك كما أذكر ظروفها القاسية التى اضطرتنا كثيرا إلى ما نكره ..

ــ هذا هو الاعتذار التقليدى ، ما علينا ، ما فات فات .

ولم يعلق عيسى بكلمة ونظر إلى الأمام معلنا رغبته فى الانفصال لعل الآخر يذهب أو يتركه فى سلام ولكنه عاد يقول برقة :

ــ وتغيرت الدنيا ، لا تظننى شامتا ، أبدا والله ، بل إننى فى كثير من الأحيان

لا أخلو من عطف ..

فقاطعه قائلا بشيء من الحدة :

ــ لست فى حاجة إلى عطفك ..

ــ لا تغضب ، ولا تسيء فهم تطفلى عليك ، إننى أرغب مخلصا فى تبادل الرأى ..

ــ عن أى شيء ؟

ــ الدنيا من حولنا ؟

وشعر عيسى بأنه ما زال ثملا ولكنه قال :

ــ لم يعد يهمنى شيء ..

فقال الشاب بدهشة :

ــ أما أنا ففى الطرف الآخر ، كل شيء يهمنى وأفكر فى كل شيء ..

ــ فلتطب لك الدنيا كما تشاء ..

ــ أليس هذا بخير من الجلوس فى الظلام تحت تمثال سعد زغلول ؟!

ــ هكذا هى تطيب لى فلا تشغل بالك بأمرى ..

ــ أنت لم تقرر بعد أن تفتح قلبك لى ..

ــ ولِم ذلك !، ألا ترى أن الدنيا كلها مملة ؟

ــ ليس عندى وقت للملل !

ــ ماذا تفعل إذن ؟

ــ أعابث المتاعب التى ألفتها وانظر إلى الأمام بوجه مبتسم ، بوجه مبتسم رغم كل شيء ، حتى ظن بى البله ..

ــ وما الذى يدعوك إلى الابتسام ؟

فقال الشاب بلهجة أكثر جدية :

ــ أحلام عجيبة ، ما رأيك فى أن نختار مكانا أنسب للحديث ؟

فقال عيسى بسرعة :

ــ آسف ، الحق أنى شربت كأسين وأرغب فى الراحة ..

فقال لآخر بأسف :

ــ أنت تود أن تجلس فى الظلام تحت تمثال سعد زغلول .

ولم يجب عيسى بكلمة فقام الآخر وهو يقول :

ــ أنت لا ترغب فى حديثى فلا يجوز أن أزعجك أكثر من ذلك ..

وتحول عنه ماضيا نحو المدينة .

وتابعه بعينيه وهو يبتعد . يا له من شاب غريب !. ترى ماذا يفعل اليوم ؟. وهل رحمته المتاعب ؟. ولماذا ينظر إلى الأمام بوجه مبتسم ؟.

وظل يتابعه بعينيه حتى بلغ آخر الميدان . لم يكن سيئ النية كما توهم ، ولم يقصده بسوء ، فلِم لم يشجعه على الحديث ؟ ألم يكن من الممكن أن يستعين به على مغالبة الملل فى هذه الساعة من الليل ؟. وألم يكن من المحتمل أن يجرهما الحديث إلى شيء مشترك تطيب به السهرة ؟.

ورآه وهو يختفى متجها نحو شارع صفية زغلول . وقال لنفسه أستطيع أن ألحق به على شرط ألا أضيع ثانية فى التردد .

وانتفض قائما فى نشوة حماس مفاجئة ، ومضى فى طريق الشاب بخطى واسعة ، تاركا وراء ظهره مجلسه الغارق فى الوحدة والظلام ..

« تمت »